الدكتور فاضل صالح السامرائي

على طريق التفسير البياني



الجزء الرابع

سورة الأنبياء

دار ابن كثير

عَلَى طَرِيقِ

التَّفْسِيرِ البَيَانِيِّ

الجُزْءُ الرَّابِعُ

• الموضوع: تفسير
• العنوان: على طريق التفسير البياني ١\٤
• تأليف: الدكتور فاضل صالح السامرائي

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

ISBN 978-614-415-267-6



• الطباعة : مطابع يوسف بيضون - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
• الورق: كريم / الطباعة: لونان / التجليد: كرتونيه
• القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 1656 / الوزن: 3200 غ



دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

 /daribnkatheer  @daribnkatheer  daribnkatheer  daribnkatheer

عَلَىٰ طَرِيقِ التَّفْسِيرِ الْبَيَانِيِّ

تأليف

الدكتور فاضل صالح السامرائي

الجُزْءُ الرَّابِعُ

سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ





بسم الله الرحمن الرحيم





سورة الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

إن هذه السورة مرتبطة بخواتيم السورة التي قبلها وهي سورة (طه) من أكثر من وجه منها:

١ ـ أنه قال في خواتيم سورة طه:

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾

وقال في أول سورة الأنبياء:

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾

ومما قيل في الأجل المسمى المذكور في آية طه أنه يوم القيامة[1] وهو موعد الحساب.

٢ ـ قال سبحانه في خواتيم سورة طه:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾

أي أتتك أياتنا فأعرضت عنها.

---

(١) انظر روح المعاني ١٦ / ٢٨٠.



وقال سبحانه في أول سورة الأنبياء: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾
فكلتا الآيتين في المعرضين عن آيات ربهم.

٣ ـ قال في أواخر سورة طه: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ۝١٣٠﴾

وقال في أول سورة الأنبياء: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾

وقال فيها أيضًا: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ۝٥﴾
فأمره في طه أن يصبر على ما قالوه في الأنبياء.

٤ ـ وقال في أواخر طه:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٣٣﴾

وقال في أول الأنبياء:

﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ۝٥﴾

فكلتا الآيتين في طلب آية.

جاء في (البحر المحيط): «مناسبة هذه السورة لما قبلها أنه لما ذكر: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا﴾ [طه: ١٣٥] قال مشركو قريش: محمد يهددنا بالمعاد والجزاء على الأعمال، وليس يصح، وإن صح ففيه بعد فأنزل الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾» (١).

* * *

(١) البحر المحيط ٦ / ٢٩٥ وانظر كتابنا (التناسب بين السورة في المفتتح والخواتيم) ١١٠ ـ ١١١.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾

* * *

يحتمل أن يكون أصل التعبير (اقترب حساب الناس) ثم (اقترب الحساب للناس) بذكر اللام التي تفيد الاختصاص والاستحقاق.

ثم قدم الجار والمجرور للاهتمام والتهويل وهو المهم فقال: (اقترب للناس الحساب)، ثم أضيف (الحساب) إليهم ليكون مختصًّا بهم، وفيه تهديد أكبر فقال: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾.

ثم إن ﴿ٱقۡتَرَبَ﴾ يفيد المبالغة في القرب، فإن (افتعل) أدل على المبالغة من (فَعَل)، والأصل (قرب).

وقيل: إن اللام متعلقة بـ (اقترب)، واللام بمعنى (إلى) أو معنى (من)، والمعنى (اقترب من الناس حسابهم) أو (اقترب إلى الناس حسابهم). وقد ذكر هذين الاحتمالين صاحب (الكشاف) فقال: «هذه اللام لا تخلو من أن تكون صلة لـ (اقترب)، أو تأكيدًا لإضافة الحساب إليهم، كقولك: (أزف للحي رحيلهم)، الأصل: أزف رحيل الحي، ثم أزف للحي الرحيل، ثم أزف للحي رحيلهم... ومنه قولهم: (لا أبالك) لأن اللام مؤكدة لمعنى الإضافة... والمراد اقتراب الساعة، وإذا اقتربت الساعة فقد اقترب ما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب

وغير ذلك. ونحوه: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧]» (١).

ومنع قسم من النحاة أن يكون (للناس) متعلقًا بالحساب؛ لأن (الحساب) مصدر ولا يتقدم معموله عليه. جاء في (البحر المحيط): «و(للناس) متعلق باقترب... وأما جعله اللام تأكيدًا لإضافة الحساب إليهم مع تقدم اللام ودخولها على الاسم الظاهر فلا نعلم أحدًا يقول ذلك، وأيضًا فيحتاج إلى ما يتعلق به، ولا يمكن تعليقها بـ(حسابهم) لأنه مصدر موصول ولا يتقدم معموله عليه» (٢).

وذهب بعضهم إلى إجازة ذلك، جاء في (شرح الرضي على الكافية): «وأنا لا أرى منعًا من تقدم معموله عليه إذا كان ظرفاً أو شبهه نحو قولك: (اللهم ارزقني من عدوك البراءة وإليك الفرار)، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ [النور: ٢]، وقال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ [الصافات: ١٠٢]... ومثله في كلامهم كثير، وتقدير الفعل في مثله تكلف» (٣).

ونحوه قوله: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]، وقولهم: (اللهم اجعل لنا من أمرنا فرجًا ومخرجًا)، وجعل الظرف متعلقًا بمحذوف حالاً من المصدر تكلف(٤).

إن تقديم الجار والمجرور (للناس) احتمل معنيين:

الأول: أنه بمعنى اقترب من الناس أو إليهم فيكون متعلقًا بالفعل (اقترب). وعليه الأكثرون.

والمعنى الآخر: أن يكون متعلقًا بالحساب، أي اقترب الحساب

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٠.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٢٩٥-٢٩٦.

(٣) شرح الرضي على الكافية ٣ / ٤٠٦.

(٤) حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ٢ / ٢٢.

للناس ، أي حساب الناس. كما أجازه جماعة من النحاة.

فأفاد التقديم المعنيين واحتملهما ، بخلاف ما لو أخر الجار والمجرور فقال: (اقترب الحساب للناس).

ثم إن تقديم (للناس) سوّغ ذكر الضمير في الحساب فقال: (حسابهم) ، ولو أخر الجار والمجرور فقال: (اقترب حساب الناس) أو: الحساب للناس لم يكن للضمير موضع.

فذكر في التعبير: الناس مع ضميرهم ، وهذا يفيد ضربًا من التأكيد.

وفي إسناد الاقتراب إلى الحساب تهويل وتفخيم ، فكأن الحساب يحث السير والسعي للوصول إليهم ، فهو استعارة تمثيلية ، فكأن الحساب شخص مغير معجل الإغارة للوصول إلى الناس.

جاء في (تفسير أبي السعود): «وفي إسناد الاقتراب المنبئ عن التوجه نحوهم إلى الحساب مع إمكان العكس بأن يعتبر التوجه والإعراض من جهتهم نحوه من تفخيم شأنه وتهويل أمره ما لا يخفى لما فيه من تصويره بصورة شيء مقبل عليهم لا يزال يطلبهم ويصيبهم لا محالة» [1].

وجاء في (التحرير والتنوير): «الاقتراب مبالغة في القرب. . .

وفي إسناد الاقتراب إلى الحساب استعارة تمثيلية ، شبه حال إظلال الحساب لهم بحالة شخص يسعى ليقرب من ديار ناس.

ففيه تشبيه هيئة الحساب المعقولة بهيئة محسوسة وهي هيئة المغير والمعجّل في الإغارة على القوم يلح في السير تكلفًا للقرب من ديارهم وهم غافلون عن تطلب الحساب إياهم كما يكون قوم غارّين معرضين

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٨٢.

عن اقتراب العدو منهم»[(١)] .

﴿ لِلنَّاسِ ﴾

قيل: إن المقصود بالناس مشركو مكة ، وقيل: المشركون مطلقًا ، وقيل: هو عام في منكري البعث[(٢)] ، وقيل: إن المراد بالناس العموم[(٣)] .

والذي يبدو أن المقصود بالناس كل من اتصف بالغفلة والإعراض. وإطلاق لفظ الناس على هؤلاء من باب المجاز المرسل والعلاقة الكلية ، فقد ذكر الكل وأراد قسمًا منهم.

جاء في (الكشاف): «وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالناس المشركون. وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم وهو ما يتلوه من صفات المشركين»[(٤)] .

﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾

وصفهم بالغفلة والإعراض ، وقيل: إن هذين الوصفين ظاهرهما التنافي ، فإن الغافل غير المعرض ، فإن المعرض عن الشيء إنما يكون إذا كان ذاكرًا له.

وقيل: إنهما وصفان باعتبار حالين مختلفين ، فإنهم غافلون فإذا ذكرتهم أعرضوا. جاء في (الكشاف): «وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، على معنى أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم. . . وإذا قرعت لهم العصا ونبهوا عن سنة الغفلة وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم

---

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ٨ـ٩.
(٢) انظر الكشاف ٢ / ٣٢٠ ، البحر المحيط ٦ / ٢٩٥ .
(٣) فتح القدير ٣ / ٣٨٤.
(٤) الكشاف ٢ / ٣٢٠.

من الآيات والنذر أعرضوا وسدوا أسماعهم ونفروا»[١].

وجاء في (البحر المحيط): «وأخبر عنهم بخبرين ظاهرهما التنافي لأن الغفلة عن الشيء والإعراض عنه متنافيان، لكن يجمع بينهما باختلاف حالين. أخبر عنهم أولاً أنهم لا يتفكرون في عاقبة أمرهم بل هم غافلون عما يؤول إليه أمرهم.

ثم أخبر عنهم ثانيًا أنهم إذا نبهوا من سنة الغفلة وذكروا بما يؤول إليه أمر المحسن والمسيء أعرضوا عنه ولم يبالوا بذلك»[٢].

وقال: (في غفلة) بذكر (في) الظرفية، ولم يقل: (غافلون)، للدلالة على أنهم ساقطون في الغفلة وأن الغفلة محيطة بهم من كل الجهات وهم مغمورون فيها. جاء في (التحرير والتنوير): «ودلت (في) على الظرفية المجازية التي هي شدة تمكن الوصف منهم، أي وهم غافلون أشد الغفلة حتى كأنهم منغمسون فيها أو مظروفون في محيطها»[٣].

ولم يرد نحو هذا التعبير في القرآن الكريم إلا في اليوم الآخر.

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩].

وقال: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وقال: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٠.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٢٩٦.

(٣) التحرير والتنوير ١٧ / ١٠.

وآية الأنبياء هذه.

وذلك أشد الغفلة.

وجاء بالإعراض بالصيغة الاسمية فقال: ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ للدلالة على الثبات والدوام.

والوصف بالإعراض الثابت الدائم مناسب لهذه الغفلة العظيمة الغامرة.

وفي الآية مبالغات عديدة منها:

أنه قال: ﴿ٱقۡتَرَبَ﴾ ولم يقل: (قرب) وهو مبالغة في القرب.

وقال: (للناس) فأطلق الكل على الجزء وهم المشركون أو المتصفون بهذين الوصفين وهو مبالغة.

وقدم الجار والمجرور للاهتمام والتهويل، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أنه أفاد التوسع في المعنى، فقد يحتمل أن يكون ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلقًا بـ﴿ٱقۡتَرَبَ﴾، ويحتمل أن يكون متعلقًا بالحساب، فأفاد معنيين وهو توسع في المعنى.

وأضاف الحساب إلى الناس فقال: ﴿حِسَابُهُمۡ﴾ تهويلاً وإنذارًا شديدًا، ولم يقل: (اقترب للناس الحساب).

وقال: ﴿فِي غَفۡلَةٍ﴾ ولم يقل: (غافلون) للدلالة على تمكن الغفلة منهم وأنهم ساقطون فيها كالساقط في اللجة.

وقال: ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ بالاسم للدلالة على الثبات والدوام.

وجمع بين الغفلة والإعراض. فهم في غفلة فإذا ذُكّروا أعرضوا.

* * *

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ ﴾

ذكر من مظاهر إعراضهم أنه ما يأتيهم شيء من القرآن يذكّرهم إلا استمعوه وهم في لعب ولهو غير ملتفتين إلى شيء من ذلك.

وقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم﴾ فنفاه بـ(ما) للدلالة على شأنهم في الحال. ولم يقل (لا يأتيهم) فينفيه بـ (لا) التي تدل على نفي المضارع في المستقبل غالبًا، وإنما ذكر حالتهم آنذاك، وذلك أن (ما) النافية إذا دخلت على المضارع أفاد الحال.

وقال: ﴿يَأْتِيهِم﴾ للدلالة على تجدد الإتيان واستمراره، ولم يقل: (ما أتاهم) التي قد تفيد حالة من حالات الماضي.

وقال: ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ بـ(من) الاستغراقية التي تفيد التوكيد والاستغراق، فهم يعرضون ويلهون عن كل ذكر يأتيهم من ربهم وليس عن ذكر دون ذكر.

قال: ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ وهذا أسوأ شيء، فإن الذكر إنما هو من ربهم الذي هو خالقهم ومربيهم ورازقهم ومتولي أمرهم. وهذا أسوأ إعراض. فإنه لو كان اللهو والإعراض عن الذكر من جهة أخرى لكان أقل سوءًا ونكرًا، فكيف وقد أتاهم الذكر من ربهم؟!

ثم قال: ﴿مُّحْدَثٍ﴾ أي جديد ينزل إليهم بعد ذكر سابق. فهم يعرضون عن كل ذكر ينزل على ما فيه من فنون الموعظة والتذكير.

ثم قال: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ ولم يقل: (سمعوه) مجرد السماع من دون معرفة بما فيه، وإنما استمعوا الموعظة وأدركوا مغزاها ومع ذلك استمعوها وهم يلعبون لاهين عابثين غير عابئين بها ولا ملتفتين إليها بل استمعوها لاهين ساخرين.

جاء في (الكشاف): «قرر إعراضهم عن تنبيه المنبه وإيقاظ الموقظ

بأن الله يجدد لهم الذكر وقتًا فوقتًا ، ويحدث لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون ، فما يزيدهم استماع الآي والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر التي هي أحق الحق وأجدّ الجد إلا لعبًا وتلهيًا واستسخارًا .

والذكر : هو الطائفة النازلة من القرآن» [١] .

وقال ههنا : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾

فقال : (من ربهم) .

وقال في الشعراء : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾

فقال : (من الرحمن)

وذلك أنه ذكر في سياق آية الأنبياء صفات أشد سوءًا مما ذكره في الشعراء مما يبعدهم عن الرحمة .

فقد ذكر في الشعراء أنهم معرضون عن الذكر ، وقال : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾ فذكر أنه ستأتيهم الأنباء ولم يقل سيأتيهم العذاب .

في حين قال في سورة الأنبياء إنهم في غفلة وإنهم معرضون ، وإنهم يستمعون الذكر وهم يلعبون ، لاهية قلوبهم ، وإنهم قالوا عن رسولهم ليس إلا بشرًا ، وإن ماجاء به سحر ، وإنه أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ، وإنهم أرادوا آية كما أرسل الأولون .

فكانوا أبعد عن الرحمة .

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٠.



وقال أيضًا: ﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦ ﴾.

وقال: ﴿ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٩ ﴾.

وقال: ﴿ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ١١ ﴾

وقال: ﴿ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ١٥ ﴾

وقال: ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨ ﴾

كل هذا لا يناسب الرحمة لأنه في مقام الإهلاك.

وأما في الشعراء فقد قال: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ ﴾

فإن الله أرحم بك من ذلك.

وقال: ﴿ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٦ ﴾ فذكر أنهم تأتيهم الأنباء ولم يذكر العقوبة.

ثم ذكر من مظاهر رحمته في الأرض فقال: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ٧ ﴾

ثم كرر قوله: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ثماني مرات في السورة.

ثم قال: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ﴾ فذكر العزيز الرحيم تسع مرات. فناسب ذلك ذكر اسمه (الرحمن).

فناسب ذكر (الرب) في آية الأنبياء، وذكر الرحمن في آية الشعراء.

جاء في (ملاك التأويل) في سبب الاختلاف بين هاتين الآيتين: «أن اسمه سبحانه (الرحمن) يغلب وروده حيث يراد الإشارة إلى العفو والإحسان والرفق بالعباد والتلطف والتأنيس...

وأما اسمه الرب فيعم وروده في طرفي الترغيب والترهيب... ولما

تقدم قبل آية الأنبياء من الأخبار ما طيّه وعيد وترهيب مع تلطفه سبحانه بهم بتذكيرهم لم يكن ليناسب ذلك ورود اسمه الرحمن.

ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ أشد تخويفًا للمخاطبين...

وأما آية الشعراء فمبنية على تأنيس النبي ﷺ وإعلامه أن توقف قومه عن الإيمان إنما هو بقدرته تعالى ولو شاء لأراهم آية تبهرهم كنتق الجبل فوق بني إسرائيل. وإلى هذه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] ثم رجع الكلام إلى تعنيف المكذبين. فلما كان بناء الآية على التأنيس والتلطف بنبينا ﷺ وإعلامه بأن تأخير العذاب عنهم إنما هو إبقاء منه تعالى ليستجيب من قدر له الإيمان منهم. فأشار إلى هذا وناسب اسمه الرحمن فقال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ فقد وضح ورود كل من الاسمين في موضعه على ما يجب ويناسب» (١).

وجاء في (كشف المعاني) لابن جماعة أنه «لما تقدم هنا ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ وذكر إعراضهم وغفلتهم وهو وعيد وتخويف فناسب ذكر الرب المالك ليوم القيامة المتولي ذلك الحساب.

وفي الشعراء تقدم ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ لكن لم يفعل ذلك لعموم رحمته للمؤمنين والكافرين لم يشأ ذلك، ويقوي ذلك تكرير قوله تعالى في السورة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾» (٢).

* * *

---

(١) ملاك التأويل ٢ / ٦٩٢ ـ ٦٩٤.

(٢) كشف المعاني ٢٥٤.

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾

«اللاهية من (لها عنه) إذا ذهل وغفل» [١].

أسند اللهو وهو الذهول والغفلة إلى القلوب ؛ لأن القلوب هي آلة الفقه والعلم ، وهي آلة التدبر والهدى ، وربنا يسند ذلك إليها أو ينفيه عنها. قال تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٧٩].

وقال : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج : ٤٦].

وقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : ٢٤].

فإذا غفلت غفل صاحبها ، وإذا عقلت عقل صاحبها ، فوصف قلوبهم بالغفلة الثابتة فقال : (لاهية) بالاسم.

والوصف بالاسم هنا مناسب لوصفهم بالغفلة التي تغمرهم والإعراض الثابت في قوله : ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾.

﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾

قوله : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ فيه مبالغة في الإسرار والإخفاء ، ذلك أن النجوى إنما تكون في السر ، فإذا قلت : (تناجى فلان وفلان) فمعنى ذلك أنهما أخفيا حديثهما ، فإذا قلت : (أسرّا النجوى) أفاد ذلك المبالغة في الإخفاء.

فالإسرار يفيد الإخفاء عن غير الذي تسر إليه الحديث.

والتناجي يفيد الإخفاء أيضًا. فإذا قلت : (أسرّ النجوى) فقد بالغت في الإخفاء.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٠.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: النجوى وهي اسم من التناجي لا تكون إلا خفية فما معنى قوله: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾؟

قلت: معناه: وبالغوا في إخفائها. . . أو جعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم ولا يعلم أنهم متناجون»[1].

إن قوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يحتمل أوجهًا إعرابية متعددة، منها أن ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بدل من الواو في ﴿أَسَرُّواْ﴾، فقد أسند الإسرار إليهم على وجه العموم ثم بين الذين أسروا فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾.

وهذا نظير ذكر الناس على العموم في قوله: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ ثم بين المقصود بهؤلاء الناس فيما بعد.

وهو تناظر لطيف.

ويحتمل أن التعبير مبني على التقديم والتأخير، فقوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى﴾ جملة خبر مقدم، و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ مبتدأ مؤخر، فيكون من باب تقديم الخبر لغرض الاهتمام.

ويحتمل أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ منصوبًا على الذم أو على إضمار (أعني). وكل هذه الأوجه على اختلاف التقديرات تفيد الاهتمام والعناية كل بحسب ما يدل عليه.

وقيل: إنما هو على لغة (أكلوني البراغيث) أي على لغة من يجعل هذه الضمائر حروفًا تدل على الفاعل فيقولون: أقبلا الرجلان، وأقبلوا الرجال، وأقبلن النسوة.

والأولى تخريجها على لغة سائر العرب وما في ذلك من دلائل معنوية.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٠ وانظر البحر المحيط ٦ / ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

جاء في (الكشاف): «أبدل ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ من واو ﴿وَأَسَرُّوا۟﴾ إشعارًا بأنهم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسروا به ، أو جاء على لغة من قال: (أكلوني البراغيث) ، أو هومنصوب المحل على الذم ، أو هو مبتدأ خبره ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى﴾ قدم عليه.

والمعنى: وهؤلاء أسرّوا النجوى ، فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا على فعلهم بأنه ظلم»[1].

﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾

أنكروا أن يرسل الله بشرًا مثلهم ، فإنه لا بد ـ فيما يرون ـ أن يكون الرسول من الله ملكًا وهذه شبهة كثير من المجتمعات البشرية ، فقد ذكر ربنا عن مجموعة من المجتمعات البشرية أنهم قالوا لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقال في قوم نوح إنهم قالوا في رسولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وقال في قوم بعد قوم نوح في رسولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣ ـ ٣٤].

وكذلك من بعدهم.

وأخبر ربنا أن هذه الشبهة منعت الناس من الإيمان فقال: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

وكذلك هي شبهة كفار قريش ، ولذا أمر ربنا رسوله في أكثر من

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٠ ـ ٣٢١ ، وانظر البحر المحيط ٦ / ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

موضع أن يقول لهم إنه بشر مثلهم فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠، فصلت: ٦].

جاء في (الكشاف): «اعتقدوا أن رسول الله ﷺ لا يكون إلا ملكًا، وأن كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر ومعجزته سحر، فلذلك قالوا على سبيل الإنكار: أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر» (١).

«والسحر عنوا ما ظهر على يديه من المعجزات» (٢).

وجملة ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ تحتمل أن تكون بدلاً من النجوى، أي أسروا هذا القول.

وتحتمل أن تكون مفعولاً به لقول محذوف، أي وأسروا النجوى قائلين: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

جاء في (الكشاف): «هذا الكلام كله في محل النصب بدلاً من النجوى، أي وأسروا هذا الحديث. ويجوز أن يتعلق بـ (قالوا) مضمرًا» (٣).

وذكرت أوجه أخرى(٤).

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

وقال في سورة (طه): ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ [طه: ٦٢-٦٣].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢١.
(٢) البحر المحيط ٦ / ٢٩٧.
(٣) الكشاف ٢ / ٣٢١، تفسير أبي السعود ٣ / ٦٨٤.
(٤) انظر روح المعاني ١٧ / ٨.

فذكر القول إضافة إلى الإسرار فقال: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ. . .﴾ ولم يذكر ذلك في آية الأنبياء فما الفرق؟

فنقول: إن ذكر القول مع ذكر النجوى آكد وأهم ؛ لأنه ذكر القول مع ما فيه معنى القول. فإن النجوى معناها القول ، ثم ذكر القول إضافة إلى ذلك ، فكأنه قد كرر اللفظ فكان آكد.

وذلك أن الموقف في (طه) أشد ، فإن السياق فيها إنما هو في موسى وفرعون وما حصل بينهما من المناظرة والمشادّة بعدما رأوا الآيات وكذبوها وزعموا أنها سحر ، وأن موسى وأخاه ساحران.

وتحدوه بأنهم سيأتونه بسحر مثله. ثم إن فرعون جمع كيده ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

فالموقف في (طه) موقف تحدّ ومواعدة وامتحان ومغالبة ، فكان الموقف أشد مما في الأنبياء الذي ليس فيه شيء من ذلك.

فناسب ذكر القول إضافة إلى ما في معناه في آية (طه) دون آية الأنبياء.

* * *

﴿قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: هلاّ قيل: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ لقوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾؟

قلت: القول عام يشمل السر والجهر فكان في العلم به العلم بالسر وزيادة، فكان آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول: يعلم السر.

كما أن قوله: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ آكد من أن يقول: (يعلم سرهم) ، ثم

بين ذلك بأنه السميع العليم لذاته فكيف تخفى عليه خافية؟»[(١)].

قد تقول: لقد قال سبحانه في سورة الفرقان: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦].

فقال في آية الأنبياء: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بإفراد السماء.

وقال في آية الفرقان: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالجمع فلم ذاك؟

والجواب: إن القول أعم من السر، فهو يشمل السر وزيادة كما ذكر صاحب الكشاف، فإن القول يكون سرًّا وجهرًا، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

وإن السماء أعم من السماوات[(٢)].

فناسب العموم العموم والخصوص الخصوص.

وقد تقول: ولم قال في آية الأنبياء ﴿يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ﴾.

وقال في آية الفرقان: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾؟

والجواب أنه ذكر النجوى وما قالوه فيها في آية الأنبياء، والنجوى قول، فناسب ذلك أن يقول: ﴿قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ﴾.

وليس في آية الفرقان مثل ذلك، وإنما هي في سياق آخر فذكر السر. فقد قال قبل آية الفرقان: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾، فقالوا إنه أساطير الأولين اكتتبها، أي كتبت له وأمليت عليه، وهذا مما فعل في السر، فناسب ذكر السر.

جاء في (الكشاف) أن أسلوب آية الأنبياء خلاف أسلوب آية الفرقان

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢١ وانظر البحر المحيط ٦ / ٢٩٧، روح المعاني ١٢ / ٣٢٦.

(٢) انظر كتابنا (التعبير القرآني) ٥٢ ـ ٥٣.

«من قبل أنه قدم ههنا أنهم أسروا النجوى ، فكأنه أراد أن يقول : إن ربي يعلم ما أسروه ، فوضع القول موضع ذلك للمبالغة .

وثَمّ قصد وصف ذاته بأن أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ، فهو كقوله : ﴿ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ ﴿ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ » (١) .

لقد ختم هذه الآية ـ أعني آية الأنبياء ـ بقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بذكر صفتي السمع والعلم ، ذلك أنه ذكر ما يسمع وما يعلم . فإن التناجي قول ، والقول مما يسمع ، وذكر الإسرار وهو مما يعلم ، فناسب ختم الآية بهذين الوصفين الجليلين .

وعرفهما للحصر ، فهو الكامل في هذين الوصفين دون غيره ، فليس ثمة ذات أخرى تتصف بهما على نحو ما يتصف به سبحانه .

* * *

﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾

«أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ، ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده ، ثم إلى أنه قول شاعر ، وهكذا الباطل لجلج ، والمبطل متحير رجاع غير ثابت على قول واحد» (٢)

«وهذه الأقوال الظاهرة أنها صدرت من قائلين متفقين انتقلوا من قول إلى قول ، أو مختلفين قال كل منهم مقالة» (٣) .

وقوله : ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ «جواب شرط محذوف ،

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢١ .

(٢) الكشاف ٢ / ٣٢١ .

(٣) البحر المحيط ٦ / ٢٩٧ .

أي إن لم يكن كما قلنا فليأتنا بآية كما أرسل الأولون» [(١)].

وهذه الأقوال جمعت القول في طبيعة الرسول وفيما جاء به وفي صفاته.

ففي طبيعة الرسول ذكر أنهم قالوا إنه بشر مثلهم.

وفيما جاء به قالوا إنه سحر وإنه أضغاث أحلام.

وفي صفاته قالوا إنه افتراه وإنه شاعر.

* * *

﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

لما طلبوا أن يأتيهم بآية كما أرسل الأولون قال سبحانه: إن القرى التي أوتيت الآيات لم يؤمنوا، فأهلكها ربنا، أفهؤلاء يؤمنون؟ أي إنهم لا يؤمنون.

وفحوى ذلك أنه إن لم يؤمنوا فسيهلكهم كما أهلك الأولين. فأمسك عنهم الآيات ليستبقيهم فيؤمن منهم من يؤمن ويمكّن لهم في الأرض ويستخلفهم إلى قيام الساعة.

جاء في (الكشاف): «فيه أنهم أعتى من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها، فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا فأهلكهم الله. فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أنكث وأنكث» [(٢)].

وجاء في (البحر المحيط): «ولكن حكم الله تعالى بإبقائهم ليؤمن من آمن ويخرج منهم مؤمنين» [(٣)].

---

(١) فتح القدير ٣ / ٣٨٥.

(٢) الكشاف ٢ / ٣٢١.

(٣) البحر المحيط ٦ / ٢٩٧.

وجاء في (التحرير والتنوير): «وإنما أمسك الله الآيات والخوارق عن مشركي مكة لأنه أراد استبقاءهم ليكون منهم مؤمنون وتكون ذرياتهم حملة هذا الدين في العالم.

ولو أرسلت عليهم الآيات البينة لكانت سنة الله أن يعقبها عذاب الاستئصال للذين لا يؤمنون بها» [١].

والمراد بإهلاك القرية إهلاك أهلها.

جاء في (روح المعاني): «﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ صفة قرية. والمراد أهلكناها بإهلاك أهلها لعدم إيمانهم بعد مجيء ما اقترحوه من الآيات» [٢].

لقد قال سبحانه: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم﴾ ولم يقل: (من قبلهم) ذلك أن (من) تفيد ابتداء الغاية[٣] أي من قبلهم القريبين فمن قبلهم.

وأما ﴿قَبْلَهُم﴾ فتفيد القبلية غير المقيدة فقد تكون قريبة أو بعيدة.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴿٣٤﴾﴾.

فجاء بـ (من) لأن ذلك يشمل جميع من قبله ابتداء من الأقرب فمن قبلهم، فكلهم ماتوا ولم يخلد أحد منهم.

فقال: (قبلهم) ولم يقل: (من قبلهم) لأنه لم يحصل ذلك في الزمن القريب منهم، ذلك أن أقرب رسول منهم هو عيسى بن مريم، وبين الرسالتين أكثر من ستمائة عام، وهو زمن بعيد، ولا نعلم كم من الزمن ممن هو قبل عيسى حصل ذاك فلم يذكر (من).

وقال: ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ بإدخال (من) الاستغراقية على القرية، فأفاد ذلك

---

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ١٧.
(٢) روح المعاني ١٧ / ١٢.
(٣) انظر كتابنا (معاني النحو) ٢ / ١٩٣ وما بعدها.

استغراق جميع القرى التي لم تؤمن.

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ فجعل الإهلاك للقرية. في حين قال في موطن آخر: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ فجعل الإهلاك لأهلها، قال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾ فما السبب؟

فنقول: لما قال: ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ فأسند الظلم إلى أهلها قال: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٥] لما نسب الظلم إليها فقال: ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ قال: ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾؟.

ومن اللطائف في نحو هذا التعبير قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣] فقال: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ ولم يقل: (أهلكناها)، ذلك أنه لما قال: ﴿هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ ويعني بالقرية التي أخرجته مكة قال: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ ولم يقل: (أهلكناها) تعظيمًا لها لئلا يظن أنه سينالها الإهلاك كما فعل بالقرى العاتية. فجعل الإهلاك لأهلها، وليس ببعيد على الله أن يهلك العتاة من أهل هذه القرية كما فعل بغيرهم ويأتي بمن هو خير منهم.

ألا ترى أنه نسب الظلم إلى القرى في أكثر من موضع فقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٥].

وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٨].

وقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء: ١١] إلا مكة فإنه لم ينسب الظلم إليها، وإنما نسبه إلى أهلها تعظيمًا لها أن ينسب إليها الظلم وتكريمًا فقال: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥].

وهو من لطيف مراعاة المقام.

* * *

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ ﴾

رد على قولهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ بهذه الآية، فذكر أن الرسل قبل سيدنا محمد كلهم بشر يوحى إليهم وليسوا ملائكة. وإن كنتم لا تعلمون ذلك فاسألوا أهل الذكر، أي أهل الكتاب حتى يعلموكم.

جاء في (الكشاف): «أمرهم أن يستعلموا أهل الذكر وهم أهل الكتاب حتى يعلموهم أن رسل الله الموحى إليهم كانوا بشرًا ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا»[١].

وجاء في (البحر المحيط): «ولما تقدم من قولهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وأن الرسول لا يكون إلا من عند الله من جنس البشر قال تعالى رادًّا عليهم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ أي بشرًا، ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا. ثم أحالهم على أهل الذكر فإنهم وإن كانوا مشابهين للكفار ساعين في إخماد نور الله لا يقدرون على إنكار إرسال البشر.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ من حيث إن قريشًا لم يكن لها كتاب سابق ولا أثارة من علم»[٢].

قد تقول: لقد قال في أكثر من موضع: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ بذكر (من)، وفي آية الأنبياء هذه لم يذكر (من).

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٢٩٨ وانظر روح المعاني ١٧ / ١٢.

فقد قال تعالى في سورة يوسف: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾ بذكر (من).

وقال في النحل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ بذكر (من) أيضًا. فما الفرق؟

فنقول: إن السياق في كل موضع يوضح السبب:

فقد ذكر كثير من النحاة أن (من) في نحو هذا التعبير تدل على ابتداء الغاية، وذهب قسم آخر إلى أنها تفيد التوكيد[1].

ومقتضى ابتداء الغاية على ما ذكر بعضهم في نحو هذا التعبير أنه يفيد استغراق الزمن المتقدم ابتداء من ابتداء الغاية إلى ما قبله، وأن (من) تفيد توكيد ما دخلت عليه[2].

ثم إن السياق في آيتي يوسف والنحل يختلف عنه في آية الأنبياء، فما كان في يوسف والنحل إنما هو في سياق العقائد.

فقد قال في سياق آية يوسف: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾.

فذكر كثرة الآيات التي يمرون عليها في السماوات والأرض وهم معرضون عنها. وهذه أعم وأكثر بكثير من كون (الرسل بشرًا)، فهذه

---

(١) انظر لسان العرب (من)، المغني ١ / ٣٢٥ـ٣٢٦، التصريح ١ / ٣٤٢.
(٢) انظر ملاك التأويل ١ / ٦٧٨، درة التنزيل ٢٤١.

مسألة واحدة وتلك آيات كثيرة. ثم ذكر معتقداتهم في الإيمان بالله مع شركهم به.

ثم قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

فقد حذرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل القرى الذين يمرون عليهم من العقوبة ويستمر في الكلام في نحو هذا.

كل هذا ليس متعلقًا بكون الرسل بشرًا أو ملائكة.

فالأمر آكد وأعم وأشمل، فجاء بـ (من) التي قد تفيد التوكيد والعموم.

وكذلك السياق في سورة النحل فإنه في العقائد والبينات والزبر وتحذير المعاندين بالعقوبات. فقد قال في سياق آية النحل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

فذكر استغراق بعث الرسل للأمم كلها ودعوتهم إلى عبادة الله واجتناب الطاغوت، وليس الكلام على كون الرسل بشرًا أو ملائكة، إلى أن قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

وطلب منهم استعلام أهل الكتاب عن البينات والزبر، وإنه أنزل الذكر إليه ليبين للناس ما نزل إليهم. وليس له علاقة بكون الرسل بشرًا أو ملائكة. فهو أعم وأشمل من ذلك. وحذر الذين يمكرون السيئات أن

يخسف الله بهم الأرض أو يعذبهم.

وهو نظير ما مر في سورة يوسف. فجاء بـ (من) الدالة على العموم والتوكيد والشمول.

وأما آية الأنبياء فهي في أمر واحد وهو ما يتعلق بإثبات بشرية الرسل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾.

فما في يوسف والنحل أعم وأشمل.

ونظير آية الأنبياء هذه ما جاء في سورة الفرقان وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ ﴿٢٠﴾﴾.

فلم يذكر (من) في الموضعين لتشابههما.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه ليست كل الأمم ينكرون بشرية الرسل، فإن أهل الكتاب لا ينكرون ذلك، ولذلك أحالهم على أهل الذكر للاستفسار، بخلاف الإيمان بما جاءت به الرسل، فإن عموم التكذيب إنما هو في ذلك.

فما في آيتي يوسف والنحل أعم من هذه الناحية أيضًا.

فإن المكذبين بما جاءت به الرسل أكثر من المكذبين بكون الرسل بشرًا.

فما جاء بـ (من) أكثر.

فناسب ذكر (من) من هذه الناحية أيضًا.

ثم إن آية الأنبياء مناسبة لما قبلها وهو قوله: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ ﴿٦﴾ ﴾.

فكلتا الآيتين من دون (من).

فناسب ذلك من هذه الناحية أيضًا.

ثم لننظر في الآيات من ناحية أخرى:

فقد قال في آية يوسف: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ ﴾.

فذكر (أهل القرى) ذلك أنه قال في الآية: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ ﴾ وهم يمرون على القرى في سيرهم في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ ﴾ [الفرقان: ٤٠] فناسب ذكر القرى.

وقال في آية النحل: ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ ﴾.

ذلك أنه قال بعد ذلك: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

فالتناسب ظاهر.

جاء في (درة التنزيل): «قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقال في سورة النحل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ ﴾.

وقال في سورة الأنبياء: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

للسائل أن يسأل فيقول: هل بين قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ﴾ فرق؟ ولأي معنى خص موضع بحذف (من) وموضع بإثباتها؟

الجواب: أن يقال: إن (من) لابتداء الغاية. و(قبلك) اسم للزمان الذي تقدم زمانك. فإذا قال: (وما أرسلنا من قبلك) فكأنه قال: وما أرسلنا من ابتداء الزمان الذي تقدم زمانك، فيخص الزمان الذي يقع عليه قبل تحديه. ويستوعب بذكر طرفيه ابتداءه وانتهاءه.

وإذا قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ﴾ فمعناه: ما فعلنا في الزمان الذي تقدم زمانك. . .

فأما قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ فإنما لم يؤكد بـ (من) لأن المعتمد بالخبر إنما هو الحال التي للمرسلين، وهي أنهم يأكلون الطعام وليسوا من الملائكة الذين طلب الكفار أن يبعثوا إليهم وأخبر الله تعالى به عنهم في قوله: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾»(١).

وجاء في (ملاك التأويل) في هذه الآيات التي ذكرها صاحب الدرة: «أن آية يوسف قد تقدمها قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾، وقوله: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ وقوة السياق في هذه الآي يدل على القسم ويعطيه، فناسب ذلك زيادة (من) المقتضية الاستغراق.

وكذلك قوله في سورة النحل: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُ﴾ [النحل: ٤١] يؤكد ذلك

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ٢٤٠ ـ ٢٤٢.

المعنى. فناسبه زيادة (من) لاستغراق ما تقدم من الزمان.

أما قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ فتقدم قبلها إنكار الكفار كون الرسل من البشر في قوله: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ واقتراحهم الآيات في قولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾، فلما انطوى هذا الكلام على قضيتين من اقتراحهم الآيات وإنكارهم كون الرسل من البشر، وقد تبين لهم حال المقترحين في قوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ فلما تقدم هذا أتبع ببيان الطرف الآخر وهو التعريف بأن من تقدم من الرسل إنما كانوا رجالاً من البشر مختصين بتخصيصه سبحانه ولم يكونوا ملائكة، فقيل لنبينا محمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾. فقيل هنا (قبلك) كما قيل في نظيرتها ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم﴾ فلم تدخل هنا (من) كما لم تدخل في النظير الآخر لإحراز التناسب والتحام الجملة المنطوية على طرفي مقصدهم من الاقتراح وإنكار كون الرسل من البشر»[١].

* * *

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾

أي لم نجعلهم أجسادًا لا تأكل الطعام، وإنما جعلناهم بشرًا يأكلون ويشربون ويموتون كسائر البشر.

وهو رد على قولهم مستنكرين: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وقولهم في موضع آخر: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧].

جاء في (الكشاف): ﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ صفة لجسدًا، والمعنى: وما جعلنا الأنبياء عليهم السلام قبله ذوي جسد غير طاعمين.

---

(١) ملاك التأويل ٢ / ٥٤٠ ـ ٥٤١.

ووحد الجسد لإرادة الجنس ، كأنه قال: ذوي ضرب من الأجساد.

وهذا رد لقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧٠]» [١].

ونفى الجملتين بـ (ما) دون (لم) ذلك أن (ما) كثيرًا ما تكون ردًّا على كلام أو ما نزل هذه المنزلة ، تقول: (لقد قال فلان كذا وكذا) فيقال لك: (ما قال ذلك). قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

فكان جوابه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦ﴾ [المائدة: ١١٧] [٢].

جاء في (الفروق اللغوية): «(ما) جواب عن الدعوى ، تقول: قلت كذا ، ويكون الجواب: ما قلت» [٣].

ومن ناحية أخرى أن (ما) آكد من (لم) ، فإنها تقع جوابًا لقسم ، بخلاف (لم) ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ، وقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ [التوبة: ٧٤].

* * *

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾

هذه إشارة إلى أنه سبحانه سيصدق رسوله ما وعده من النصر والظفر وإهلاك أعدائه كما فعل مع الرسل قبله.

جاء في (البحر المحيط): «ذكر تعالى سيرته مع أنبيائه فكذلك يصدق

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢ ، وانظر البحر المحيط ٦ / ٢٩٨ ـ ٢٩٩ ، روح المعاني ١٧ / ١٣.

(٢) انظر معاني النحو ٤ / ١٦٧.

(٣) الفروق اللغوية ٣٣٤.

نبيه محمدًا ﷺ وأصحابه ما وعدهم به من النصر وظهور الكلمة ، فهذه عدة للمؤمنين ووعيد للكافرين» [١] .

وجاء بأداة التراخي (ثم) إشارة «إلى أنهم طال بلاؤهم بهم وصبرهم عليهم ، ثم أحل بهم سطوته وأراهم عظمته. ولذا قال مسببًا عن ذلك: (فأنجيناهم) أي الرسول بعظمتنا» [٢] .

«والإتيان بصيغة المستقبل في قوله تعالى: ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾ احتباك ، والتقدير: فأنجيناهم ومن شئنا وننجي رسولنا ومن نشاء منكم. وهو تأميل لهم أن يؤمنوا لأن من المكذبين يوم نزول هذه الآية من آمنوا فيما بعد إلى يوم فتح مكة.

وهذا من لطف الله بعباده في ترغيبهم في الإيمان. ولذلك لم يقل: (ونهلك المسرفين) بل عاد إلى صيغة المضي الذي هو حكاية لما حل بالأمم السالفة. . .

والمسرفون: المفرطون في التكذيب بالإصرار والاستمرار عليه حتى حل بهم العذاب» [٣] .

* * *

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾

الذكر: الشرف والصيت والثناء ، والذكر: الكتاب الذي فيه تفصيل الدين ووضع الملل ، والذكر: الموعظة ، والتذكير: الوعظ [٤] .

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٢٩٩ .
(٢) نظم الدرر ١٢ / ٣٩٢.
(٣) التحرير والتنوير ١٧ / ٢١ .
(٤) انظر لسان العرب (ذكر) ، تاج العروس (ذكر) .

والمعنى: لقد أنزلنا إليكم كتابًا فيه شرفكم وصيتكم وفيه موعظتكم وهداكم. فجمع فيه الهدى والموعظة والصيت والشرف والثناء عليهم.

أفلا تعقلون عظمة هذا الكتاب ونفعه لكم؟ وهل هناك عاقل يرفض ما فيه من خير كثير؟! وماذا يريد الإنسان أكثر من ذلك؟! وجاء بـ (لقد) الدالة على القسم ليؤكد هذا الأمر.

جاء في (الكشاف): «(ذكركم) شرفكم وصيتكم، كما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أو موعظتكم، أو فيه مكارم الأخلاق التي كنتم تطلبون بها الثناء أو حسن الذكر، كحسن الجوار والوفاء بالعهد وصدق الحديث وأداء الأمانة والسخاء وما أشبه ذلك» (١).

* * *

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾

* * *

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾

القصم: أفظع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء ويفرقها بالكلية.

والتعبير بالقصم يدل على غضب شديد.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢ وانظر البحر المحيط ٦ / ٢٩٩، تفسير أبي السعود ٣ / ٦٨٩، روح المعاني ١٧ / ١٤ ـ ١٥.

و(كم) خبرية وهي تدل على التكثير.

ونسب الظلم إلى القرية والمقصود أهلها لإرادة الشمول والعموم.

جاء في (الكشاف): «﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ واردة عن غضب شديد ومنادية على سخط عظيم لأن القصم أفظع الكسر، وهوالكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء، بخلاف الفصم.

وأراد بالقرية أهلها، ولذلك وصفها بالظلم.

وقال: ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ لأن المعنى: أهلكنا قوما وأنشأنا قومًا آخرين»[(١)].

وجاء في (روح المعاني): «وفي لفظ القصم الذي هو عبارة عن الكسر بتفريق الأجزاء وإذهاب التئامها بالكلية، كما يشعر به الإتيان بالقاف الشديدة من الدلالة على قوة الغضب وشدة السخط ما لا يخفى»[(٢)].

قد تقول: لقد قال في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

فذكر القرية في الأنبياء، وذكر القرن في الأنعام.

وذكر القصم في الأنبياء، وذكر الإهلاك في الأنعام.

وقال في الأنبياء: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢.

(٢) روح المعاني ١٧ / ١٥.

وقال في الأنعام: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾

فما دلالة ذلك في كل من الموطنين؟

فنقول:

١ ـ القرن أهل زمن واحد، والجيل الواحد، وقيل: هو مائة سنة، وقيل: ثمانون، وقيل غير ذلك[١].

أما القرية فمعروفة.

والقرن إنما تكون فيه قرى كثيرة. فالقرن الواحد يشمل كثيرًا من القرى، فقد تكون عشرات القرى في زمن واحد.

فالقرى أكثر عددًا من القرن.

ثم إنه وصف القرن بأوصاف تخصصهم قد لا تكون في القرية، فقد قال فيه: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾. وقد تكون القرية غير ممكنة في الأرض كما وصف.

وذكر أنه أرسل السماء عليهم مدرارًا وجعل الأنهار تجري من تحتهم، وليست كل القرى كذلك.

٢ ـ قال في آية الأنبياء: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

وقال في آية الأنعام: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾

فقال بعد إهلاك القرى إنه أنشأ قومًا آخرين.

وأما القرن فيليه قرن آخر فناسب ذكر القرن بعد إهلاك القرن قبله.

٣ ـ قال في آية الأنبياء: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾.

---

(١) انظر لسان العرب (قرن)، تاج العروس (قرن)، المصباح المنير (قرن).



وقال آية الأنعام: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

ذلك أنه بعد إهلاك القرى قد يتأخر الزمن لمجيء قوم بعدهم، فقد تبقى القرى خالية خاوية من دون أن يأتي بعد هلاكها قوم.

أما القرن فيليه القرن الآخر بلا فاصل، فجاء بـ(من) التي تفيد الابتداء.

٤ ـ قوله: (قصمنا) في آية الأنبياء مناسب لقوله: ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ ذلك أن الظلم يستدعي شدة العقوبة.

وقوله: ﴿أَهْلَكْنَا﴾ مناسب لقوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ فإن الذنوب قد تكون كبيرة وقد تكون دون ذلك.

فناسب ذكر القصم وهو أفظع الكسر والمنبئ عن السخط الشديد ذكر الظلم.

وناسب ذكر الإهلاك الذي قد لا يبلغ مبلغ القصم قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾.

ثم إن القصم إهلاك خاص فناسب ذكر الظلم، وهو أخص من عموم الذنب.

وإن الإهلاك عام فناسب ذكر الذنوب وهي عامة.

فناسب كل تعبير موضعه.

وقد تقول: لكنه سبحانه قد يذكر الظلم ولا يذكر القصم وإنما يذكر الإهلاك كما قال تعالى في سورة الحج: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

فنقول: القصم كما ذكرنا ينبئ عن شدة العقوبة وشدة السخط، ولو نظرنا في سياق كل من الآيتين في الحج والأنبياء لاتضح الفرق.

فإنه قال في آية الحج: ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

وقال في سياق آية الأنبياء: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾.

فذكر أنهم أترفوا وأنهم نادوا بالويل وأقروا بالظلم ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ وأنه سبحانه جعلهم حصيدًا خامدين.

فالفرق ظاهر.

فناسب كل تعبير موضعه.

* * *

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾

الركض: ضرب الدابة بالرجل، يقال: (ركض الدابة) أي ضربها برجله لتسرع.

ومعنى الآية أنهم لما أحسوا العذاب ركضوا دوابهم هاربين من القرية. ويحتمل أنهم جروا على أرجلهم مشبهين من يركض الدابة لسرعة عَدْوهم.

و(إذا) فجائية، أي هربوا عند إحساسهم بالعذاب من دون تأخر أو انتظار. جاء في (الكشاف): «والركض: ضرب الدابة بالرجل، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢]. فيجوز أن يركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ويجوز أن شبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم»[١].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢.

وجاء في (البحر المحيط): «والظاهر أنهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين. قيل: ويجوز أن شبهوا في سرعة عدْوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم، فهم يركضون الأرض بأرجلهم كما قال: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾»[1].

* * *

﴿لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ١٣﴾

من المحتمل أنه قيل لهم ذلك والقول محذوف، أو أن ذلك قول بلسان الحال، أي حريّ بهم أن يقال لهم ذلك. جاء في (تفسير أبي السعود): «أي قيل لهم بلسان الحال أو بلسان المقال»[2].

والهروب من مساكنهم وما هم فيه من ترف ورفاه وسعة عيش فجأة من دون تأخر يدل على شدة ما نزل بهم.

﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ﴾ عما نزل بكم وما جرىٰ لأموالكم ومساكنكم وماذا تأمرون وبم تشيرون علينا وماذا نفعل. وهذا تهكم بهم.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: من القائل؟

قلت: يحتمل أن يكون بعض الملائكة أو مَن ثَمّ من المؤمنين أو يجعلوا خلقاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يقل.

﴿وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ﴾ من العيش الرافه والحال الناعمة، والإتراف: إبطار النعمة وهي الترفة.

﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ﴾ تهكم بهم وتوبيخ، أي ارجعوا إلى نعيمكم

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٠٠.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٠.

ومساكنكم لعلكم تسألون غدًا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة»[(١)].

وجاء في (روح المعاني): «﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات والنوازل، أو تسألون عما جرى عليكم ونزل بأموالكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة، أو يسألكم حشمكم وعبيدكم فيقولوا لكم: بم تأمرون وماذا ترسمون وكيف نأتي ونذر كما كنتم من قبل»[(٢)].

* * *

﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ (١٥)﴾

أي نادوا بالويل وهو الهلاك. وذكروا علة الهلاك وهي الظلم. وأطلقوا الظلم ولم يخصصوه بشيء للدلالة على عموم الظلم وأن ظلمهم كان عامًّا لا ينحصر بشيء.

وجاء بالاسم للدلالة على اتصافهم بالظلم على جهة الثبات والدوام وليس على جهة الحدوث، فاستحقوا ما نزل بهم من العذاب.

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي ظلوا يرددون هذا القول ويدعون بالويل حتى جعلهم ربنا كالزرع المحصود، خامدين كالنار الهامدة.

وقال: ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ﴾ ولم يقل: (حتى صاروا) أو (حتى أصبحوا) أي إن ذلك من فعل ربنا بهم عقوبة لهم.

جاء في (الكشاف): «(تلك) إشارة إلى (يا ويلنا) لأنها دعوى.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢.

(٢) روح المعاني ١٧ / ١٦.

كأنه قيل: فما زالت تلك الدعوى دعواهم.

والدعوى بمعنى الدعوة، قال تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠] ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فإن قلت: لم سميت (دعوى)؟

قلت: لأن المولول كأنه يدعو الويل فيقول: تعال يا ويل فهذا وقتك... (حصيدًا) الحصيد: الزرع المحصود، أي جعلناهم مثل الحصيد، شبههم به في استئصالهم واصطلامهم»[(١)].

و«(خامدين) أي موتى دون أرواح مشبهين بالنار إذا طفئت»[(٢)].

وقوله: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ «أي فما زالوا يرددون تلك الكلمة»[(٣)].

* * *

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

لما أثبت للناس اللهو واللعب في أول السورة وذمهم بذلك في قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ نفى عن نفسه ذلك في هاتين الآيتين، بل نفى عنه ذلك منذ أول الخلق إلى الأبد، فإنه لم يفعل شيئًا ولا يفعل شيئًا إلا عن حكمة، وقد أظهرت شيئًا من ذلك آيات السورة من أولها إلى آخرها.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢.
(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٠١.
(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٠.



فقد قال ههنا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ وهذا أول الخلق.

وقال في خواتيم السورة: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧]، وقال: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴿١٠٤﴾﴾.

وكما قال ذلك في مواضع عدة من القرآن الكريم من نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧].

وقال بعد الآية: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

جاء في (نظم الدرر): «ولما ذمهم باللعب وبين أنه يفعل في إهلاك الظلم وإنجاء العدل فعل الجادّ بإحقاق الحق بالانتقام لأهله وإزهاق الباطل باجتثاثه من أصله... عطف عليه قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا﴾ أي بعظمتنا التي تقتضي الجد ولا بد...

ولما نفى عنه اللعب أتبعه دليله فقال: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ...﴾»[1].

وجاء في (الكشاف): «أي وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق... للهو واللعب، وإنما سويناها للفوائد الدينية والحكم الربانية، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التي لا تعد...

ثم بين أن السبب في ترك اتخاذ اللهو واللعب وانتفائه عن أفعالي هو

---

(١) نظم الدرر ١٢ / ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

أن الحكمة صارفة عنه وإلا فأنا قادر على اتخاذه إن كنت فاعلاً»[١] .

وقال: (خلقنا) بإسناد الخلق إلى ضمير العظمة ، ولم يرد (خلقت) في نحو هذا التعبير في القرآن العظيم .

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾

وقال في سورة الدخان: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ .

وفي التعبيرين تشابه واختلاف .

من ذلك إفراد السماء في آية الأنبياء وجمعها في الدخان ، وذكر اللهو في سياق الأنبياء في قوله: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ ولم يذكر ذلك في الدخان. وغير ذلك من الاختلاف. ولكلٍّ من ذلك سببه المناسب .

١ ـ فقد نفى عن نفسه سبحانه اللعب واللهو في آيتي الأنبياء ، فقد قال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ فنفى عنه اللعب .

ثم قال: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ فنفى عنه اللهو ، وذلك أنه أثبت في أول السورة للناس اللعب واللهو فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ .

وأما في الدخان فقد أثبت لهم اللعب فقال: ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾ .

فنفى عنه سبحانه اللعب .

٢ ـ أثبت في الدخان لهم الشك فقال: ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾ ونقيض الشك العلم فنفى عنهم العلم فقال: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . ذلك أن الشاكّ ليس عنده علم يفضي إلى اليقين فنفى عنهم ذاك .

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢ .

٣ ـ أفرد السماء في سورة الأنبياء فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ وذلك مناسب لما ورد في أول السورة، فقد قال سبحانه: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

وجمعها في سورة الدخان فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ وهو مناسب لما ورد في أول السورة، فقد قال: ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الدخان: ٧].

فناسبت كل آية مفتتح سورتها.

٤ ـ إن الكلام في سورة الأنبياء مبني على العموم، فقد قال: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾.

فذكر الناس على العموم.

وقال: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ والسماء أعم من السماوات.

ذكر الأمم على العموم فقال: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ﴿٦﴾ ﴾.

فجاء بـ (من) الاستغراقية.

وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴿٧﴾ ﴾ فذكر الرسل قبله.

وقال: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴿١١﴾ ﴾ فجاء بـ (كم) الخبرية الدالة على التكثير.

أما في الدخان فقد ذكر ذلك على سبيل الخصوص.

فقد ذكر قوم فرعون فقال: ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴿١٧﴾ ﴾.

ثم ذكر كفار قريش فقال: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

وذكر قوم تبع والذين من قبلهم فقال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴿٣٧﴾﴾.

فذكر القرى على العموم في الأنبياء.

وذكر قومًا مخصوصين في الدخان.

فناسب العموم العموم وهو (السماء).

وناسب الخصوص الخصوص وهو (السماوات).

فإن السماء قد تأتي أعم من السماوات كما ذكرنا في أكثر من مناسبة.

٥ ـ ذكر الأنبياء في سورة الأنبياء على العموم.

ثم ذكر من أسمائهم ما هو أعم وأكثر مما هو في سورة الدخان. فقد قال في سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

وقال: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴿٢٤﴾﴾.

وهذا يعم جميع الأنبياء بلا استثناء.

وذكر من الأنبياء موسى وهرون فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً ﴿٤٨﴾﴾

وذكر إبراهيم فقال: ﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ ﴿٥١﴾﴾.

ولوطًا فقال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿٧٤﴾﴾

وإسحاق ويعقوب (٧٢)، ونوحًا (٧٦)، وداود وسليمان (٧٨)، وأيوب (٨٣)، وإسماعيل وإدريس وذا الكفل (٨٥)، وذا النون (٨٧)، وزكريا (٨٩)، ويحيى (٩٠).

في حين لم يذكر في الدخان اسم رسول وإنما ذكر قوم فرعون بشيء من التفصيل ، وأشار إلى قوم تبع والذين من قبلهم.

فلما كان الكلام في الأنبياء على العموم ذكر السماء التي تفيد العموم.

فناسب العموم العموم من كل وجه.

* * *

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

لما نفى سبحانه عن نفسه اللهو واللعب أضرب عن اتخاذهما فأخبر أنه يقذف بالحق على الباطل.

وأصل القذف: الرمي الشديد بجسم صلب كالحجارة والحصا ونحو ذلك. جاء في (روح المعاني): «وأصل القذف الرمي البعيد كما قال الراغب وهو مستلزم لصلابة الرمي»[1].

فكأن الحق جرم صلب شديد والباطل جسم رخو وقد قذف به على الباطل فحطمه.

وجاء بـ (إذا) الفجائية للدلالة على سرعة زهوقه واضمحلاله.

وقال: ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ ﴾ بالاسم ولم يقل: (فإذا هو يزهق) للدلالة على الثبات وللدلالة على سرعة زهوقه ، فكأن الأمر حاصل وثابت ، ولم يدع له فرصة لبقائه ومكثه.

وقد ذكر ربنا في السورة أمثلة لما قذف به من الحق على الباطل ، فقد ذكر في أكثر من موطن أنه أهلك الظالمين والمسرفين ومن استحق العقوبة فقذف الحق على الباطل فدمغه.

---

(١) روح المعاني ١٧ / ٢٠ وانظر مفردات الراغب (قذف).

قال تعالى: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

فذكر أنه أهلك القرى بسبب عدم إيمانها.

وقال: ﴿ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

وقال: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴿١١﴾ ﴾

وقال: ﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

وذكر قذف الحق على الباطل بالحجة والبرهان فقال: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

وقال: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

فناسب ذلك قوله: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ ﴾.

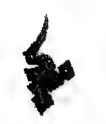
جاء في (الكشاف): «(بل) إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاته. . . بل من عادتنا وموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نغلب اللعب بالجد وندحض الباطل بالحق.

واستعار لذلك القذف والدمغ تصويرًا لإبطاله وإهداره ومحقه، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه» (١).

وجاء في (تفسير أبي السعود): «وقد استعير لإيراد الحق على الباطل القذف الذي هو الرمي الشديد بالجرم الصلب كالصخرة، ولمحقه للباطل الدمغ الذي هو كسر الشيء الرخو الأجوف وهو الدماغ بحيث يشق غشاءه المؤدي إلى زهوق الروح تصويرًا له بذلك. . .

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٣، البحر المحيط ٦ / ٢٨٠.



وفي (إذا) الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلان ما لا يخفى فكأنه زاهق من الأصل» [١] .

﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾

هو تهديد ووعيد بالهلاك لأهل الكفر بسبب ما يصفونه به سبحانه من أمور لا تجوز ولا تليق بشأنه.

و(من) في (مما) تعليلية.

و(ما) في (ما تصفون) تحتمل الموصولة ، أي بالذي يصفونه به سبحانه ، وتحتمل المصدرية ، أي بوصفهم له سبحانه بما لا يليق.

جاء في (روح المعاني): «﴿ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ : و(ما) إما مصدرية أو موصولة أو موصوفة ، أي ومستقر لكم الويل والهلاك من أجل وصفكم له تعالى بما لا يليق بشأنه الجليل تعالى شأنه ، أو بالذي تصفونه ، أو بشيء تصفونه به من الولد ونحوه» [٢] .

* * *

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾

ذكر قبل هذه الآية أنه خلق السماء والأرض وما بينهما فذلك يعني أنها ملكه ، وذلك قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾

وذكر في هذه الآية أن له من فيهما وذلك قوله: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ .

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ٦٩٢.

(٢) روح المعاني ١٧/ ٢٠ وانظر تفسير أبي السعود ٣/ ٦٩٢.

فالسماوات والأرض وما بينهما ومن فيهما ملكه.

وذكر في أوائل السورة أنه يعلم القول فيهما ما أسروه وما جهروا به فقال: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾.

وذكر أن من عنده من الملائكة يعبدونه لا يكلّون ولا يملّون، وأنهم يسبحون الليل والنهار لا ينقطعون عن التسبيح.

جاء في (الكشاف): «أي تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لا يتخلله فترة بفراغ أو شغل آخر» (١).

قد تقول: لقد قال هنا: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

وقال في سورة فصلت: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾.

وقال في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

فقال في الأنبياء: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾.

وقال في فصلت: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ﴾.

وقال في الأعراف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾.

فقال في الأنبياء: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ بذكر (من).

وقال في فصلت والأعراف (الذين عند ربك) بذكر (الذين).

---

(١) الكشاف ٢ / ٢٣٤.

وفي تعبير آخر:

قال في الأنبياء: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

وقال في فصلت: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

وقال في الأعراف: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾.

فأطلق التسبيح في الأنبياء، وقيده بحرف الجر في فصلت، وقيده بالمفعول به في الأعراف.

فما سر هذا الاختلاف؟

والجواب أن كل تعبير مناسب لسياقه وما أريد له من معان.

وذلك أن آية الأنبياء أعم من الموضعين الآخرين من جهات عدة منها:

١ ـ أنه قال في آية الأنبياء: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾

وقال في فصلت: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾

وقال في الأعراف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾

و(من) أعم من (الذين) لأنه اسم موصول مشترك، و(الذين) مختص. فـ (من) يطلق على الواحد والمثنى والجمع، المذكر والمؤنث، بخلاف (الذين) فإنه خاص بجماعة الذكور.

هذا إضافة إلى أنه مناسب لما تقدم في الآية من قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، فناسب عموم من في السماوات والأرض عموم من عنده، وناسب ذكر (من) في الموضعين.

أما في فصلت فقد خاطب الناس أو جماعة منهم بقوله: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ



لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.

ولا شك أن قوله: ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أعم من هؤلاء. فجاء بالاسم الموصول المختص مناسبة للخصوص.

وكذلك ما ورد في الأعراف، فإن قبل الآية قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ولا شك أن ما ورد في الأنبياء أعم بكثير من المخاطبين في الأعراف.

فجاء بالاسم الموصول المختص في الأعراف مناسبة للخصوص.

وهذا من لطيف المناسبات.

٢ ـ وقال في الأنبياء: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾

وقال في فصلت: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ﴾

وقال في الأعراف: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾

و(يسبحون) أعم من (يسبحون له) و(يسبحونه)؛ لأنه غير مقيد، فهو يشملهما ويشمل غيرهما من أنواع التسبيح من نحو: (سبح اسمه) و(سبح باسمه) و(سبح بحمده) وغير ذلك من أنواع التسبيح.

٣ ـ قال في الأنبياء: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي لا يكلّون ولا يتعبون، فدل ذلك على دوام العبادة وعدم انقطاعها.

ولم يقل مثل ذلك في الموضعين الآخرين.

ولا شك أن ما في آية الأنبياء أعم وأدوم.

٤ ـ قال في الأنبياء: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي على الدوام لا ينقطعون.

وقال في فصلت: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي في هذين الوقتين. فما في الأنبياء أدوم.

ولم يذكر في الأعراف وقتًا للتسبيح ولا للسجود وإنما ذكر الحدث فقال: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩﴾.

وهذا لا يدل على الدوام والاستمرار. فإنك إذا قلت: (أحمد يصلي) أو يقرأ القرآن فإن ذلك لا يدل على الاستمرار فيهما وأنه لا يقطع ذلك في وقت من الأوقات.

أما في الأنبياء فتنصيص على الدوام وعدم الانقطاع. فهو أعم.

٥ ـ قال في الأنبياء: ﴿لَا يَفۡتُرُونَ﴾ فلا تحصل فترة منهم.

أي لا يسكّنون.

ولم يقل مثل ذلك في الموضعين الآخرين، فدل على دوام التسبيح.

وكل تعبير مناسب للسياق الذي ورد فيه.

فإن التخصيص في فصلت مناسب لما تقدمه وهو قوله: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ٣٧﴾.

فهو طلب أمر مخصص وهو السجود لله.

وكذلك التخصيص في الأعراف فإنه مناسب لما تقدمه وهو قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾.

فهو طلب أمر مخصص وهو الاستماع للقرآن عند قراءته، وطلب الذكر من الرسول على الخصوص. ولا شك أن هذا أخص بكثير من عبادة

الملائكة المطلقة المستمرة وتسبيحهم الذي لا يفتر ولا ينقطع.

وأما آية الأنبياء فلم يتقدمها شيء من ذلك، وإنما تقدمها قوله سبحانه: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

والحق عام والباطل عام.

فناسب العموم في آية الأنبياء ما تقدمها.

وناسب كل تعبير السياق الذي ورد فيه.

* * *

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

أنكر عليهم في هذه الآية اتخاذ آلهة من الأرض، ثم أنكر عليهم اتخاذ آلهة من دون الله على العموم في آية بعدها فقال: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴿٢٤﴾ ﴾.

فأنكر اتخاذ الآلهة على العموم من الأرض أو من غيرها.

فهو إنكار على متخذي الآلهة من دون الله سواء اتخذوها من الأرض أم من غيرها.

وذكر الآلهة في الأرض لأن كفار قريش وهم الذين أنزل عليهم القرآن كانوا يعبدون الأصنام وهي حجارة.

وقد تقول: ولماذا لم يقل: (أم اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض) فيقول: (من دون الله) كما قال في آيات أخرى من نحو قوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ [مريم: ٨١].

وقوله: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الفرقان: ٣] وكما قال في آية بعدها: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴿٢٤﴾ ﴾؟



فنقول: لما قال: ﴿ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ دل ذلك على أنها من دون الله.

ثم إن قوله: ﴿ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ مناسب لما ورد في السورة من إهلاك القرى الظالمة على الأرض وأهلها من نحو قوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ ﴿٦﴾﴾ وقوله: ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾، وقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴿١١﴾﴾ فماذا فعلت الآلهة وإله السماء يدمر قرى الأرض وساكنيها من الظالمين الذين يعبدون هذه الآلهة؟!

ومناسب لما ورد في السورة من اتخاذ قوم إبراهيم آلهة من الأرض فحطمها إبراهيم وجعلها جذاذًا، فماذا فعلت هذه الآلهة المضحكة؟!

ومناسب لما ورد في السورة من قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

فماذا تفعل هذه الآلهة في الأرض وإله السماء ينقص ما هم عليه حتى أتى عليهم كلهم وما هم عليه؟!

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه ذكر في الآية شيئًا واحدًا لهذه الآلهة وهو قوله: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾، فلما كان الأمر جزئيًا ذكر جزءًا من الآلهة وهو الآلهة من الأرض.

في حين قال في آية بعدها: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ ﴿٢٤﴾﴾.

فلم يقل: (من الأرض) بل ذكر اتخاذ الآلهة على العموم، وذلك أن ما ذكره في الآية الثانية أمر عام غير مقيد بشيء.

فناسب العموم العموم، وناسب الخصوص الخصوص.

وقوله: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي يبعثون الموتى من قبورهم.

وذكرُ الإنشار مناسب لقوله في أول السورة: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ

حِسَابُهُمْ﴾ ، ومناسب لقوله سبحانه في السورة: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ، وقوله: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ ، ولما ذكره في آخر السورة من الرجوع إلى الله والحساب والجزاء.

وهو تهكم بهم فإنهم لا يؤمنون بالحشر مع أنهم يؤمنون بالله كما ذكر الله عنهم في أكثر من موضع من نحو قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ [الجاثية: ٣٢] ، وآيات أخرى.

جاء في الكشاف: «هذه أم المنقطعة الكائنة بمعنى: بل والهمزة، قد آذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها...

فإن قلت: كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر وما كانوا يدّعون ذلك لآلهتهم؟ وكيف وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى، وذلك أنهم كانوا ـ مع إقرارهم لله عز وجل بأنه خالق السماوات والأرض ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ، وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى ـ منكرين البعث، ويقولون: من يحيي العظام وهي رميم؟...

قلت: الأمر كما ذكرت، ولكنهم بادعائهم لها الإلهية يلزمهم أن يدّعوا لها الإنشار؛ لأنه لا يستحق هذ الاسم إلا القادر على كل مقدور، والإنشار من جملة المقدورات.

وفيه باب من التهكم بهم والتوبيخ والتجهيل... ومعنى نسبتها إلى الأرض: الإيذان بأنها الأصنام التي تعبد في الأرض»[1].

* * *

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٤ وانظر تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٣.

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

أي لو كان في السماوات والأرض آلهة غير الله لفسدتا. و(إلا) هنا وصفية بمعنى غير.

قد تقول: لقد قال في هذه الآية: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ فذكر (رب العرش).

وقال في موطن آخر: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

وفي موضع آخر يقول: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١، الصافات: ١٥٩].

وفي موضع آخر يقول: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٨٠].

وقال في موضع آخر: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٢].

فما السر في ذلك؟

فنقول: إن كل تعبير مناسب للموضع الذي ورد فيه.

أما قوله في آية الأنبياء: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ ﴾ فإنه ذكر رب العرش لما تقدم من ذكر الذين عنده أنهم يسبحون الليل والنهار وهم الملائكة فناسب ذكر العرش.

وأما قوله: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ فإنه يقول ذلك إذا ذكر أمرًا واحدًا كأن يذكر قول المشركين باتخاذ الولد، فإذا ذكر معه الشرك أضاف إلى ذلك قوله (تعالى)، فيضيف تنزيهًا آخر إلى ما ذكر.

فالشيء الواحد يذكر له تنزيهًا، فإذا زاد عليه ذكر تنزيهًا آخر.



هذا إضافة إلى ذكر صفات أخرى تناسب المقام.

وإيضاح ذلك:

أنه سبحانه قال في سورة الصافات: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ... أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ ... وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ لما ذكر شيئًا واحدًا وهو اتخاذ الولد.

وقال في الأنعام: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾﴾.

فقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ لما ذكر أمرين:

الشرك وذلك قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ﴾.

واتخاذ الولد وذلك قوله: ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ ... أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ﴾.

وقال في المؤمنون: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

وقال بعدها: ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

وذلك أنه ذكر أمرين:

اتخاذ الولد وهو قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ﴾.



ونفي الشرك وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾.

وأما قوله في الصافات: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فهو مناسب للسياق الذي وردت فيه الآية وذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾.

فالسياق ـ كما هو ظاهر ـ في نصر المؤمنين وإنزال العذاب بالكافرين وذلك من مقتضيات العزة.

فإن العزيز هو الذي ينصر ويغلب فناسب ذلك أن يقول: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

وقال: (سبحان ربك) بإضافة الرب إليه؛ لأنه المتفضل عليه وهاديه وهو الذي أرسله برسالته وقد وعده بالنصر وذلك قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾...﴾

فناسب أن يقول: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴿١٨٠﴾﴾

وأما قوله في الزخرف: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فهو مناسب لما ورد في سياقه.

فقد قال في الزخرف: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾

فذكر اتخاذ الولد وهو قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾.

ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ فذكر أنه الإله فيهما.

ثم قال: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا. . .﴾ فذكر أن له ملكهما.

وقدم الجار والمجرور (له) للحصر، فإنه له وحده ملك السماوات والأرض حصرًا لا يشاركه في ذلك أحد.

وقال في الآية: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فذكر أنه ربهما. فجمع السياق الدلالة على الربوبية والألوهية والملك فناسب أن يذكر أنه رب العرش فإن العرش للملك.

إضافة إلى ما ذكر بعد ذلك من صفات الكمال.

* * *

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

لما ذكر سبحانه أنه خلق السماء والأرض وما بينهما، وذكر أن له من في السماوات والأرض، وأن له القوة والعزة فأهلك القرى الظالمة وبطش بها، وأنه يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فلا تكون أفعاله إلا حقًّا ولا تصدر إلا عن حكمة، وأنه الإله في السماوات والأرض لا شريك له عُلم أنه لا يسأل عما يفعل وإنما هو الذي يسأل غيره، فكل من عداه عبد له مملوك وكلهم مسؤولون أمامه. فلا يُسأل لأنه الإله وأنه الخالق وأنه الملك وأنه المالك وأنه القوي العزيز وأن أفعاله كلها لا تصدر إلا عن حكمة، وإن كل واحدة من هذه الصفات لا يُسأل من اتصف بها عما يفعل فكيف إذا اجتمعت؟!

ثم إن هذه الآية مناسبة لما افتتحت به السورة وهو قوله: ﴿ٱقْتَرَبَ

لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ فالناس مسؤولون أمامه وقد اقترب حسابهم.

ومناسبة للآية قبلها وهي قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

فهو الإله في السماوات والأرض لا شريك له، والإله لا يسأل عما يفعل.

وهو (رب العرش)، ورب العرش لا يسأل؛ لأن رب العرش هو الملك، والملك لا يُسأل عما يفعل وإنما هو الذي يسأل غيره. وقوله: (سبحان الله) يعني أنه المنزه في أفعاله وصفاته، والمنزه لا يسأل عما يفعل لأنه الكامل في ذلك.

جاء في (البحر المحيط): «ثم وصف نفسه بكمال القدرة ونهاية الحكم فقال: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، إذ له أن يفعل في ملكه ما يشاء، وفعله على أقصى درجات الحكمة فلا اعتراض عليه ولا تعقب عليه. ولما كانت عادة الملوك أنهم لا يسألون عما يصدر من أفعالهم مع إمكان الخطأ فيها كان ملك الملوك أحق بألا يسأل» (١).

* * *

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أنكر عليهم قبل هذه الآية اتخاذ آلهة من الأرض، وأنكر في هذه الآية اتخاذ الآلهة من دون الله على العموم. وقد أقام البرهان على فساد القول

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٠٥.

باتخاذ الآلهة فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

وطلب منهم أن يأتوا ببرهان على صحة قولهم باتخاذ الآلهة فقال لهم: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ سواء كان من جهة العقل أم النقل.

أما هو سبحانه فقد ذكر الحجة العقلية وهي قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، ثم تحداهم بالبرهان النقلي وهو الكتب المنزلة على الرسل سواء ما أنزل عليه أو ما أنزل على من قبله فقال لهم: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ وهو ما أنزل إليه، و﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ وهو ما أنزل إلى من قبله من الأنبياء فإنها كلها تدعو إلى توحيد الله والنهي عن الشرك.

ثم أضرب فبين أن أكثرهم لا يعلمون الحق ولذلك هم معرضون عنه.

ثم ذكر في الآية التي تلي هذه الآية ماذا في ذكر من قبله وماذا أوحى إلى رسله فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

جاء في (الكشاف): «كرر ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ استفظاعًا لشأنهم واستعظامًا لكفرهم، أي وصفتم الله تعالى بأن له شريكاً فهاتوا برهانكم على ذلك: إما من جهة العقل، وإما من جهة الوحي، فإنكم لا تجدون كتابًا من كتب الأولين إلا وتوحيد الله وتنزيهه عن الأنداد مدعو إليه، والإشراك به منهي عنه متوعد عليه. أي (هذا) الوحي الوارد في معنى توحيد الله ونفي الشركاء عنه كما ورد عليّ فقد ورد على جميع الأنبياء.

فهو ذكر، أي عظة للذين معي، يعني أمته، وذكر للذين من قبلي، يريد أمم الأنبياء عليهم السلام» [1].

* * *

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٥ وانظر تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٥.



﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

هذه الآية وقعت في سياق ما قبلها من آي التوحيد وإبطال الشرك من مثل قوله سبحانه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾.

وقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ﴾

ثم قال: ﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ﴾ فذكر في هذه الآية، أعني ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ. . .﴾ ماذا أوحى إليه في ذكر من قبله.

فذكر أن كل رسول أرسله ربنا سبحانه أوحى إليه ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

فبين أنه أوحى إليه بالتوحيد والأمر بعبادته سبحانه.

وقال: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ فجاء بـ(من) الدالة على الاستغراق، فدل ذلك على أن كل رسول أوحي إليه هذا الأمر بلا استثناء، فلم يستثن رسولاً من ذلك.

وقال: ﴿إِلَّا نُوحِيٓ﴾ بالمضارع، ولم يقل: (أوحينا) لحكاية الحال وذلك يدل على الاهتمام بما أوحى إليه.

جاء في (تفسير أبي السعود): «وأيّاً ما كان فصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارًا لصورة الوحي» (١).

بل إن التعبير في الآية كله دل على الاهتمام والتوكيد.

فالحصر في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ﴾ يفيد

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٦.

التوكيد ، وهو آكد من نحو قولنا : (وأوحينا إلى الرسل قبلك أنه لا إله إلا أنا) .

والنفي بـ (ما) في (ما أرسلنا) يفيد التوكيد ؛ لأن (ما) تكون جوابًا للقسم ، وهي آكد من (لم) .

وقال : (من قبلك) فجاء بـ (من) ، وهو آكد مما لو قال : (وما أرسلنا قبلك) ، فـ (من) تفيد الابتداء فاستغرقت كل من كان قبله .

وقد مر شيء من ذلك فيما ذكرنا .

وقال : (من رسول) فأدخل (من) الاستغراقية المؤكدة على المجرور فاستغرق ذلك جميع الرسل مع التوكيد كما ذكرنا قبل قليل .

وقال : (نوحي) بالمضارع لحكاية الحال وذلك يدل على الاهتمام كما ذكرنا .

وقال : (أرسلنا) و(نوحي) بالإسناد إلى ضمير التعظيم .

ووردت قراءتان متواترتان في (نوحي) هما (نوحي) و(يوحَى) بالبناء للمجهول[١] فجمعت معنيين وصيغتين .

وقال : (أنه) بإدخال (أن) على ضمير الشأن الدال على التعظيم والاهتمام ، ولم يقل : (أن لا إله إلا أنا) بحذف ضمير الشأن . ومن المعلوم أن الذكر آكد من الحذف .

إنه لم يقل كما قال في غير هذا الموطن (أن لا إله إلا هو) وذلك نحو قوله تعالى في سورة هود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

---

(١) انظر البحر المحيط ٦ / ٣٠٦ وروح المعاني ١٧ / ٣٢.



فقال: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولم يقل: (وأنه) كما قال في آية الأنبياء.

وكما قال في سورة الأنبياء في موضع آخر: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

وذلك أن آية هود في سياق الدلالة على أن القرآن ليس مفترى وإنما هو من عند الله. في حين أن السياق في آية الأنبياء إنما هو في سياق التوحيد ونفي الشرك.

فلما كان السياق في التوحيد أكد وعظم بذكر ضمير الشأن.

كما أن آية الأنبياء الأخرى ليست في سياق التوحيد، وإنما هي في سياق التسبيح والدعاء والإقرار بما فعل من خلاف الأولى فقال: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ ولم يقل (أنه).

وكل تعبير مناسب في سياقه الذي ورد فيه.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ كله مؤكد.

وقوله: (فاعبدون) أمر بعبادة الله وهي الغاية التي خلق لها الثقلان كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿فَٱعْبُدُونِ﴾:

إن قوله: (فاعبدون) أمر للجمع مع أن الموحى إليه واحد، فلم يقل: (إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدني) ذلك أن الأمر له ولمن أرسل إليهم على الأظهر. جاء في (البحر المحيط) في قوله: (فاعبدون): «ويحتمل أن يكون الأمر له ولأمته»[(١)].

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٠٦ وانظر روح المعاني ١٧ / ٣٢.

قد تقول: لقد قال في سورة النحل: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾.

فأمر في هذه الآية بالتقوى فقال: ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾.

وأمر في آية الأنبياء بالعبادة فقال: ﴿ فَٱعْبُدُونِ ﴾.

فما سر الاختلاف في ذلك؟

فنقول: إنه قال في آية النحل (أن أنذروا)، والإنذار يقتضي اتقاء ما أُنذروا به. فالنذير يخوفهم من أمر عليهم أن يتقوه، فناسب ذلك قوله: (فاتقون).

وأما آية الأنبياء فإنها في توحيد الله وعبادته، وهي في سياق إفراده بالعبادة والتوحيد وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾.

وقوله: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾، وقوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ ﴾، وقوله: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ ﴾.

وقال في موضع آخر من السورة: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾، وتكرر ذكر العبادة في السورة.

وناسبت آية النحل ـ إضافة إلى ما ورد فيها من ذكر الإنذار ـ ختام ما ورد في السورة وهو قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

كما تكرر ذكر الاتقاء في أكثر من موضع في السورة وذلك نحو قوله: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾، وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ وغيرها.

فناسب كل تعبير ما ورد فيه من أكثر من جهة.

وقد تقول: لقد قال في سورة الإسراء: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

فقال: (قبلك) ولم يقل: (من قبلك) كما قال في آية الأنبياء فما سبب ذلك؟

والجواب أنه قال قبل آية الإسراء: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾، ثم قال: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

والعقوبة التي ذكرها في قوله: ﴿لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إنما حصلت قبل الرسول بزمن طويل، فإنها لم تحصل لقوم عيسى، وإنما حصلت لفرعون ومن معه حين اتبع موسى بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم، وحصلت للأقوام القديمة كعاد وثمود وغيرهم من الأقوام في الأزمان السحيقة.

إن هذا الأمر لم يحصل ابتداء من زمن الرسالة قبل بعثة الرسول، وإنما حصل قبل ذلك بما لا يعلمه إلا الله، فلم يقل: (من قبلك) بـ (من) التي تفيد ابتداء الغاية، وإنما قال: (قبلك) وهو ما يدل على عموم الزمن قبله فقد يكون ذلك قريبًا أو بعيدًا.

فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه والله أعلم.

* * *

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

نزه سبحانه نفسه عن اتخاذ الولد، ذلك أن من الكفار من قال: (ولد الله) كما ذكر ذلك عنهم في سورة الصافات فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ

لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

ومنهم من قال: إن الملائكة بنات الله، فرد عليهم سبحانه بقوله: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢١ ـ ٢٢].

وقال: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ﴾ [الإسراء: ٤٠].

وقال في آية الأنبياء هذه: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ وقد قيل: إن هذه الآية «نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله. نزه ذاته عن ذلك، ثم أخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافي الولادة»[(١)]. وقيل: إن بعض العرب من غير خزاعة قالوا ذلك أيضًا[(٢)].

فذكر أن الملائكة هم عباد لله.

ثم وصف هؤلاء العباد بأنهم مكرمون مصطفون؛ لأن من العباد من ليس بمكرم كما ذكر سبحانه عن قسم من عباده الضالين فقال: ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الفرقان: ١٧].

ثم ذكر أن هؤلاء العباد المكرمين لا ينطقون بشيء قبله سبحانه، فهم لا يتقدمونه بقول. وإنه سبحانه إذا أمر بشيء فإنهم يعملون بأمره. وقدم الجار والمجرور فقال: ﴿ بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ للدلالة على أنهم لا يعملون بأمر غيره وإنما يعملون بأمره خاصة.

جاء في (نظم الدرر): «(وهم بأمره) أي خاصة إذا أمرهم (يعملون) لا بغيره لأنهم في غاية المراقبة له، فجمعوا في الطاعة بين القول والفعل وذلك غاية الطاعة»[(٣)].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٦ وانظر البحر المحيط ٦ / ٣٠٧.
(٢) انظر روح المعاني ١٧ / ٣٢.
(٣) نظم الدرر ١٢ / ٤٠٨ ـ ٤٠٩.

وجاء في (تفسير أبي السعود) في قوله تعالى: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ ، «بيان لتبعيتهم له تعالى في الأعمال إثر بيان تبعيتهم له في الأقوال. فإن نفي سبقهم له تعالى بالقول عبارة عن تبعيتهم له تعالى فيه. كأنه قيل هم بأمره يقولون وبأمره يعملون لا بغير أمره أصلاً. فالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور معتبر بالنسبة إلى غير أمره لا إلى أمر غيره» [١].

ولئلا يظن أنهم قد يتركون شيئًا من أمره ذكر أنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، أي ما تقدم من أفعالهم وأقوالهم وما تأخر ، وما عملوا وما لم يعملوا بعد[٢].

ثم ذكر أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله ، فهم لا يسبقونه بقول ولا يشفعون إلا لمن علموا أن الله يرتضي ذلك.

ثم ذكر أنهم في خوف منه ومراقبة له سبحانه لا يأمنون مكره.

وقال: (مشفقون) ولم يقل: (يشفقون) ليدل على أن ذلك وصفهم الدائم الثابت.

ومع هذا الثناء عليهم فذلك لا يمنع من أن يعذبهم إذا تجاوزوا الحد فقال: ﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ . وهذا لا يخصهم وحدهم بل يشمل كل ظالم فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

وقد مر قبل هذه الآية ذكر لعقوبات الظالمين من نحو قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴿١١﴾﴾ .

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٧ .

(٢) انظر البحر المحيط ٦ / ٣٠٧ .

وقوله: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

جاء في (الكشاف): «(لا يسبقونه)... والمعنى أنهم يتبعون قوله ولا يقولون شيئًا حتى يقوله، فلا يسبق قولهم قوله... أي لا يتقدمون قوله بقولهم... وكما أن قولهم تابع لقوله فعملهم أيضًا كذلك مبني على أمره، لا يعملون عملاً ما لم يؤمروا به...

ومن تحفظهم أنهم لا يجسرون أن يشفعوا إلا لمن ارتضاه الله وأهله للشفاعة في ازدياد الثواب العظيم. ثم إنهم مع هذا كله من خشية الله (مشفقون) أي متوقعون من أمارة ضعيفة، كائنون على حذر ورقبة لا يأمنون مكر الله...

وبعد أن وصف كرامتهم عليه وقرب منزلتهم عنده وأثنى عليهم... فاجأ بالوعيد الشديد، وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم إن كان ذلك على سبيل الفرض والتمثيل» [1].

وجاء في (تفسير أبي السعود): «(مشفقون) مرتعدون. وأصل الخشية الخوف مع التعظيم ولذلك خص بها العلماء. والإشفاق الخوف مع الاعتناء.

فعند تعديته بـ(من) يكون معنى الخوف فيه أظهر، وعند تعديته بـ (على) ينعكس الأمر» [2].

وجاء في (روح المعاني): «﴿ مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾) وفرق بين الخشية والإشفاق بأن الأول خوف مشوب بتعظيم ومهابة ولذلك خص به

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٦.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٧.

العلماء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ »[١] .

وفي (التحرير والتنوير) : «الإشفاق توقع المكروه والحذر منه»[٢] .

لقد جاء نحو هذا التعبير في عدة مواضع من القرآن الكريم ، غير أنه لم يكن التعقيب واحدًا ، بل ذكر في كل موضع نوعًا من التعقيب والتبيين يختلف عما ذكر في المواضع الأخرى .

وأول موضع ورد فيه نحو هذا التعبير ما جاء في سورة البقرة وهو قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ .

فرد عليهم بأن له ما في السماوات والأرض وأنهم كلهم خاضعون له ، وأنه أبدع السماوات والأرض وأوجدهما وأنه على كل شيء قدير ، فإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون ، فلا يحتاج إلى الولد ، فهو الغني المستغني المقتدر فلماذا يتخذ ولدًا؟

فرد عليهم بغناه وقدرته ، غير أنه لم يذكر فظاعة هذه الكلمة ولا ماذا ستكون عاقبة الذين يقولون بهذا القول .

ثم ورد نحو هذا التعبير في سورة يونس فقال : ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ . . . قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا

---

(١) روح المعاني ١٧ / ٣٣.
(٢) التحرير والتنوير ١٧ / ٥٢.

يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

فذكر قبل الآية أن له من في السماوات ومن في الأرض فلماذا يتخذ الولد؟

ثم ذكر أنه الغني ، ولم يقل: (إنه غني) بل ذكر أنه الغني ولا غني غيره ، فإن له ما في السماوات وما في الأرض ، فكرر (ما).

ففي آية البقرة لما لم يذكر أنه الغني لم يكرر (ما) ، وإنما قال: ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

ولما قال في آية يونس: ﴿ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ﴾ كرر (ما) فقال: ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ للتوكيد والتوسع في ذكر الغنى.

ثم رد على القائلين بهذا القول بأنهم ليس عندهم سلطان بهذا وأنهم يقولون على الله ما لا يعلمون.

وألمح إلى أن هذا من الافتراء على الله ، وأنه سيعاقب الكافرين ، وهذه إشارة إلى أن القول بهذا إنما هو كفر.

ولم يرد مثل ذلك في البقرة. وهي مرحلة بعد الذكر الأول.

ثم ذكر القائلين بهذا في سورة الكهف وأنه ينذرهم فليحذروا فقال: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾.

فإنه بعد أن ذكر القائلين في موضعين ناسب أن ينذرهم بعد ذلك فقال: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾.

فتدرج في القول فلم يذكر في يونس أنه سيعذب القائلين بهذا بصورة مباشرة ، وإنما قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾

فذكر عموم الافتراء على الله ، وليس ذلك خاصًا بهذا القول.

وأما في آية الكهف فإنه أنذر الذين يقولون هذا القول بصورة مباشرة ، وأنه نفى العلم عنهم وعن آبائهم ، ثم عظم هذه المقالة وأنها كبيرة فقال: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ .

وصرح بأن هؤلاء لم يقولوا إلاّ الكذب.

ولم يذكر غناه فاكتفى بما مر من ذلك ، وإنما ذكر أمرًا آخر وهو الإنذار المباشر وعظم هذه المقالة وكذبها.

ثم قال في سورة مريم: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ .

فإنه قبل هذا الموطن ذكر كذب هذا القول وأن هذه الكلمة كبيرة ، أما ههنا فقد فصل في هذا القول وذكر أنه عظيم ثقيل تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا.

ولم يذكر نحو هذا فيما سبق ، وإنما ألمح إلى أنه كذب ، ثم صرح بأنه كذب ، وذكر قبل هذه السورة أن هذه الكلمة كبرت تخرج من أفواههم.

أما ههنا فأنت تلاحظ أنه عظّم هذه المقالة في السماوات والأرض والجبال وفظّعها ، وأن كل من في السماوات والأرض إنْ هم إلا عبيد له.

ومن الملاحظ في هذه الآية أنه ذكر اسمه (الرحمن) ولم يذكر لفظ الجلالة (الله) كما في الآيات السابقة. ولعل ذلك لأنه لم يذكر تهديدًا لمن قال هذا القول.

ثم إن سورة مريم تردد فيها اسم الرحمن كثيرًا ، وهي أكثر سورة تردد فيها هذا الاسم الجليل. فناسب ذلك من جهة أخرى.

ثم ذكر في سورة الأنبياء نحو ذلك فقال: ﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

فذكر صفة هؤلاء الذين قالوا فيهم إنهم اتخذهم الرحمن ولدًا فذكر أنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون كما ذكرنا.

ولم يعد ما ذكره في المواطن السابقة ، بل ذكر شيئًا آخر وهو صفة الملائكة هؤلاء. وهو أمر لم يذكره في المواطن الأخرى.

وقد ذكر ههنا اسمه (الرحمن) كما في آية مريم ، ولعل سبب ذلك أنه لم يذكر تهديدًا لمن قال هذا القول ، وهو المناسب لاسمه الرحمن.

ومن الملاحظ في هذه الآيات أنه إذا ذكر اسمه (الله) فهو إما يذكر غناه أو يذكر إنذارًا لمن قال هذا القول أو يذكرهما معًا.

ففي سياق آية البقرة قال: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ ﴿١١٥﴾ ﴾.

وقال: ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ وأنه بديع السماوات والأرض.

ثم إنه لم يرد في سورة البقرة اسمه (الرحمن) إلا في موضع واحد وهو قوله: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

بخلاف اسم (الله) الذي تردد فيها كثيرًا كثيرًا.

وفي آية يونس ذكر غناه وأشار إلى التهديد والإنذار فقال: ﴿ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

ثم ذكر عاقبة هؤلاء الكفرة فقال: ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ .

وأنذر في آية الكهف من قال بهذا القول فقال: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ .

ولم يذكر تهديدًا أو غنى مع اسمه (الرحمن) في آيتي مريم والأنبياء. فلم يكرر ما ورد من هذا الأمر وإنما ذكر في كل موطن أمرًا يتناسب مع المقام والسياق والتدرج في شأن المقالة والقائلين.

* * *

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

أي ألم يتفكروا أوَلم يعلموا أن السماوات والأرض كانتا مرتوقتين أي لاصقة إحداهما بالأخرى ففصلنا الأرض عن السماوات؟

وقال: (رتقًا) دون (مرتوقتين) لأن (رتقًا) مصدر ، والمصدر يخبر به عن المفرد وغيره كما يقال: رجل عدل ورجال عدل. ورجل صوم وامرأة صوم ورجال صوم.

وأخبر به عنهما للمبالغة.

والرؤية قلبية ، أي: ألم يعلموا[1]؟ .

قد تقول: لعلهم لم يكونوا يعلمون ذلك.

---

(١) انظر الكشاف ٢ / ٣٢٦ ـ ٣٢٧ ، روح المعاني ١٧ / ٣٤.

فنقول: إن ذلك يقال لمن يعلم أو لإعلام من لم يكن يعلم. كما تقول لصاحبك: (ألم تعلم أن فلانًا حصل على جائزة؟) وهو لا يعلم ذاك وإنما أردت إخباره، وهذا جارٍ كثير في اللغة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١].

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وهو إنما يخبره بذلك.

ونحو هذا كثير في القرآن الكريم.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾.

أي «صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء لا بد له منه» (١)، فالماء هو سبب الحياة.

فبدأ بذكر الحالة الأولى لوجود الكون وهي أن السماوات والأرض كانتا ملتحمتين لاصقة إحداهما بالأخرى ففصلهما.

ثم ذكر أصل الحياة وما يسبق الحياة، ثم جعل الأشياء حية بسبب الماء.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٧.

فذكر حالتين متناظرتين:

ما يسبق هذا الكون المشاهد.

وما يسبق وجود الأحياء.

وهو تناظر جميل.

ولما ذكر في أول الآية الذين كفروا فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ ختمها بدعوتهم إلى الإيمان فقال: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وجاء بالفاء الدالة على السبب في قوله: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ألا يكون ذلك سببًا لايمانهم؟!

* * *

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾

الرواسي من الجبال: الثوابت الرواسخ[1].

ومن لطائف التعبير القرآني أنه لا يعبر بالرواسي في أحداث القيامة، بل يعبر عنها بالجبال وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: ١٠]، وقوله: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤].

وذلك لأنها لم تعد رواسي. وإنما خص التعبير بـ (الرواسي) في الحياة الدنيا، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا﴾ [النحل: ١٥].

وقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: ١٠].

---

(١) انظر لسان العرب (رسا).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

أما التعبير بالجبال فهو عام، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ [النحل: ٨١].

﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾.

أي لئلا تميد وتضطرب[١].

ومن لطائف التعبير في القرآن أن نفي الميد يجعله مع لفظ (الرواسي) دون غيرها فلم يجعله مع لفظ الجبال، ذلك أن معنى الرواسي ـ كما ذكرنا ـ هو الثوابت الرواسخ، فهي تثبت الأرض لئلا تميد.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾.

الفج: الطريق الواسع بين جبلين، وقيل: هوالطريق الواسع في الجبل[٢]، وقيل: هو الطريق الواضح الواسع[٣].

والسبيل: الطريق الذي فيه سهولة[٤].

وجمع بين الفجاج والسبل لإفادة معنى السعة والسهولة واليسر وذلك من تمام النعمة.

جاء في (روح المعاني): «(فجاجًا) جمع فج، قال الراغب: هو شقة يكتنفها جبلان. وقال الزجاج: كل مخترق بين جبلين فهو فج. وقال بعضهم: هو مطلق الواسع سواء كان طريقًا بين جبلين أم لا . . .

---

(١) انظر الكشاف ٢ / ٣٢٧.

(٢) انظر لسان العرب (فجج).

(٣) المصباح المنير (الفج)، وانظر الكشاف ٢ / ٣٢٧.

(٤) انظر مفردات الراغب (سبل).

وقوله سبحانه: (سبلاً) بدل منه. فيدل ضمنًا على أنه تعالى خلقها ووسعها للسابلة مع ما فيه من التأكيد ؛ لأن البدل كالتكرار وعلى نية تكرار العامل ، والمبدل منه ليس في حكم السقوط مطلقًا. . . .

[وقيل]: إن (سبلاً) عطف بيان وهو سائغ في النكرات حيث قال: هو تفسير للفجاج وبيان أن تلك الفجاج نافذة، فقد يكون الفج غير نافذ»[١].

قد تقول: لقد قدم الفجاج على السبل ههنا ، وقدم السبل على الفجاج في سورة نوح فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

فنقول: لما ذكر الرواسي في آية الأنبياء ناسب تقديم الفجاج على السبل ؛ لأن الفج هو الطريق في الجبل كما ذكرنا.

ولما قال (بساطاً) في سورة نوح قدم السبل وهي الطرق الميسرة السهلة[٢].

﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾

أي يهتدون في سيرهم أو يهتدون إلى الإيمان بالله ، فإن هذه من الآيات التي تهدي إلى الإيمان.

وكلا الأمرين مطلوب ، فإن الجبال من وسائل الهداية في السير ، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥ ـ ١٦].

وهي من الآيات الدالة على توحيده وقدرته سبحانه. قال تعالى:

---

(١) روح المعاني ١٧ / ٣٨.
(٢) انظر التعبير القرآني ٦٣.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ١٩].

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وقال: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

جاء في (التحرير والتنوير): «وجملة ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ مستأنفة إنشاء رجاء اهتداء المشركين إلى وحدانية الله، فإن هذه الدلائل مشاهدة لهم واضحة الدلالة.

ويجوز أن يراد بالاهتداء الاهتداء في السير، أي جعلنا سبلاً واضحة غير محجوبة بالضيق إرادة اهتدائهم في سيرهم فتكون هذه منة أخرى»[١].

* * *

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢﴾

ذكر في آية سابقة أن السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقهما.

ثم بدأ بما يتعلق بالأرض وأهلها، فذكر أنه جعل من الماء كل شيء حي.

ثم ذكر أنه جعل في الأرض رواسي لئلا تميد بأهلها وجعل فيها فجاجًا سبلاً لعلهم يهتدون.

ثم انتقل في هذه الآية إلى ذكر السماء فقال:

---

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ٥٧.

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ أي محفوظًا من الوقوع على الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج : ٦٥] .

ومحفوظًا من الشياطين كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحجر : ١٦ ـ ١٨] .

وجعل فيها ما يحفظها كما ذكر سبحانه : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ [الصافات : ٦ ـ ٧] .

فهي سقف محفوظ بأمر الله سبحانه من كل ما يمنع من الحفظ .

وهم عن آياتها وما أودع الله فيها من دلائل من شمس وقمر ونجوم وأحوال معرضون لا يتدبرون فيها .

جاء في (الكشاف) : «(محفوظاً) حفظه بالإمساك بقدرته من أن يقع على الأرض ويتزلزل ، أو بالشهب عن تسمع الشياطين على سكانه من الملائكة .

(عن آياتها) أي عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر بالشمس والقمر وسائر النيرات ومسايرها وطلوعها وغروبها» [1] .

وجاء في (التفسير الكبير) للفخر الرازي : «قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ عما وضع الله تعالى فيها من الأدلة والعبر في حركاتها وكيفية حركاتها وجهات حركاتها ومطالعها ومغاربها واتصالات بعضها ببعض وانفصالاتها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٧ وانظر تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٠ .

الحكمة البالغة والقدرة الباهرة»[(١)].

* * *

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

لما قال في الآية السابقة: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ ذكر شيئًا من آياتها في هذه الآية، فذكر الليل والنهار وآيتيهما وهما الشمس والقمر. فالشمس آية النهار، والقمر آية الليل.

وقدم الليل على النهار لسبقه، وقدم الشمس على القمر لسبقها.

فالليل أسبق في الوجود من النهار، والشمس أسبق في الوجود من القمر.

لقد قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أي هو لا غيره، فإن هذا التعبير يفيد القصر.

وقال: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فجاء بضمير الجمع للإشارة إلى كل ما يسبح في فلكه في السماء فنوّن (كل)، والتنوين في (كل) يفيد العموم، ولو أضاف أو بيّن بمن فقال: (وكل منهما) لتخصص الكلام بهما.

جاء في (التحرير والتنوير): «وضمير (يسبحون) عائد إلى عموم آيات السماء وخصوص الشمس والقمر»[(٢)].

وقال: (يسبحون) بضمير العقلاء، ولم يقل: (يسبحن) أو (تسبح) لأن السباحة من أفعال الآدميين. وهذه الآية نظير قوله سبحانه في سورة يس: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

---

(١) التفسير الكبير ٢٢ / ١٤٠.
(٢) التحرير والتنوير ١٧ / ٦٠.

وقوله: ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف: ٤].

جاء في (نظم الدرر): «ولما ذكر السماء ذكر ما ينشأ عنها فقال: (وهو) أي لا غيره ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ ثم أتبعهما آيتيهما فقال: (والشمس) التي هي آية النهار وبها وجوده. (والقمر) الذي هو آية الليل»[١].

وجاء في (الكشاف): «(كل) التنوين فيه عوض من المضاف إليه، أي كلهم ﴿ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾. والضمير للشمس والقمر، والمراد بهما جنس الطوالع كل يوم وليلة، جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها... وإنما جعل الضمير واو العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة»[٢].

وجاء في (البحر المحيط): «وجاء (يسبحون) بواو الجمع العاقل. فأما الجمع فقيل ثم معطوف محذوف وهو (والنجوم) ولذلك عاد الضمير مجموعًا، ولو لم يكن ثم معطوف محذوف لكان (يسبحان) مثنى...

وأما كونه ضمير من يعقل ولم يكن التركيب (يسبحن) فقال الفراء: لما كانت السباحة من أفعال الآدميين جاء ما أسند إليهما مجموعًا جمع من يعقل كقوله: ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾»[٣].

* * *

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

وذلك من حكمته سبحانه الذي جعل من الماء كل شيء حي، وجعل

---

(١) نظم الدرر ١٢ / ٤١٦.
(٢) الكشاف ٢ / ٣٢٧.
(٣) البحر المحيط ٦ / ٣١٠. وانظر روح المعاني ١٧ / ٣٩.

في الأرض رواسي أن تميد بهم ، وخلق الليل والنهار والشمس والقمر .

والليل يمضي ولا يعود إلى يوم القيامة ويأتي بعده ليل آخر .

والنهار يمضي ولا يعود إلى يوم القيامة ويأتي بعده نهار آخر .

والبشر يموت ولا يعود إلى يوم القيامة فيبعثه الله ويحاسبه .

فلم يجعل لبشر من قبله الخلد .

ونفى الفعل بـ (ما) ولم ينفه بـ (لم) لأن (ما) آكد من (لم) .

وإذا تربصوا بك ريب المنون فمتّ أفهم خالدون في الدنيا؟

وقال: ﴿ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ ولم يقل: (فهم خالدون) وذلك للحصر ، أي: أفهم الخالدون دون غيرهم من البشر الذين قضى الله أن لم يجعل لأحد منهم الخلد .

لقد قال ههنا: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ فقال: (الخلد) ولم يقل: (الخلود) ، فإن القرآن الكريم يستعمل (الخلد) كثيرًا ، واستعمل (الخلود) في موطن واحد وذلك قوله سبحانه: ﴿ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٣ ـ ٣٤] .

واستعمل (الخلد) فيما عدا ذلك وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ [يونس: ٥٢] .

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فصلت: ٢٨] .

وقوله: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الفرقان: ١٥] .

فاستعمل (الخلد) لمن هم أقل عددًا ممن ذكر في آية (ق) .

فقد قال في (ق): ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ ويوم الخلود ليس خاصًا بمؤمن أو كافر ، بل كلهم يشملهم ذلك اليوم فهو يوم الخلود للجميع سواء كان من



أهل الجنة أم من أهل النار.

قد تقول: ولكن الكلام على المتقين فقد قال سبحانه في سياق الآية: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ . . . ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

فنقول: لم يقل: (تلك دار الخلود) أو (جنة الخلود) في إشارة إلى الجنة، وإنما قال: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾، وهو وإن بشرهم بالخلود في خطابه لهم غير أن التعبير بيوم الخلود لا يخصهم وحدهم. فيوم الخلود ليس خاصًّا بصنف دون صنف وإنما هو عام لكل المكلفين.

هذا إضافة إلى أنه ورد في السياق ذكر أهل النار وأهل الجنة. وأما (الخلد) فلم يستعملها إلا مخصصة بصنف دون آخرين. فقد قال: ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ ﴾، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِۖ ﴾ وهذا خاص بالكافرين.

وقال: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ﴾ وهذا خاص بالمؤمنين.

فاستعمل (الخلود) التي هي أكثر حروفًا من (الخلد) لمن هم أكثر عددًا. فـ (خلود) أربعة أحرف، و(خلد) ثلاثة أحرف.

فناسب بين القلة والكثرة في بناء المفردة والمكلفين.

وكذلك الأمر في آية الأنبياء هذه وهي قوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ ﴾، فالبشر هنا يعني واحدًا من الناس، وحتى إذا قصد بها مجموعة من الناس فهم قلة بالنسبة إلى مجموع البشر. وهذا من لطائف التعبير.

لقد قال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ فأسند الجعل لنفسه سبحانه فهو الذي قضى بذلك وقدره.

ثم بين ذلك بقوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ ﴾

فلا تنجو نفس من الموت بل لا بد أن تذوقه.

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾

«أي نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا، وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم...

و(فتنة) مصدر مؤكد لـ (نبلوكم) من غير لفظه» [(١)].

ويحتمل أيضًا أن تكون (فتنة) مفعولاً لأجله، أي (لنفتنكم)، كما يحتمل أن تكون حالاً أي: فاتنين لكم، بمعنى: مختبرين لكم، كما يحتمل أن تكون مفعولاً مطلقًا مؤكدًا من غير لفظ الفعل كما ذكر صاحب الكشاف.

وجاء بالمصدر ليحتمل المعاني الثلاثة: المصدر المؤكد والمفعول له والحال وهو من التوسع في المعنى.

و«قدم الشر لأن الابتلاء به أكثر... وعن ابن عباس: الخير والشر هنا عام في الغنى والفقر، والصحة والمرض، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال...

والظاهر أن المراد من الخير والشر هنا كل ما صح أن يكون فتنة وابتلاء...

وانتصب (فتنة) على أنه مفعول له، أو مصدر في موضع الحال، أو مصدر من معنى نبلوكم...

﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فنجازيكم على ما صدر منكم في حالة الابتلاء من الصبر والشكر وفي غير الابتلاء» [(٢)].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٨.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣١١ وانظر روح المعاني ١٧ / ٤٧.

«وأكد فعل البلاء بمصدر من معناه مقرون بالهاء تعظيمًا له فقال: (فتنة) أي كما يفتن الذهب إذا أريدت تصفيته بمخالطة النار له»[(١)].

﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي لا إلى غيرنا فنحاسبكم ونجزيكم على ما قدمتم.

وهذا التعقيب مناسب لمفتتح السورة وهو قوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

ولما ذكره في آخر السورة من عاقبة الكافرين والمؤمنين.

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

وقال في سورة العنكبوت: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

فلم يقل في آية العنكبوت: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) كما قال في آية الأنبياء.

وقال في آية الأنبياء: ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بالواو.

وقال في آية العنكبوت: ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بثم.

فلم ذاك؟

أما إنه لم يقل في آية العنكبوت: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) فقد قيل: إنه «لما تقدم أول سورة العنكبوت ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [الآيتان: ٢ ـ ٣] أغنى ذلك عن (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) في آية العنكبوت فحذف منها»[(٢)].

---

(١) نظم الدرر ١٢ / ٤١٨.

(٢) حاشية البرهان للكرماني ذات الرقم ١١ ص ٢٤٠.

وهو توجيه مقبول.

وأما قوله في آية الأنبياء: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾

وقوله في آية العنكبوت: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾

فلأن آية الأنبياء ـ والله أعلم ـ هي في الرجوع إلى الله عند الموت أو في القيامة.

وأما آية العنكبوت فهي فيما بعد ذلك وهو دخول الجنة أو النار.

يدلك على ذلك سياق آيات العنكبوت، فهو في ذكر من يدخل النار ومن يدخل الجنة. قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

فجاء بـ(ثم) التي تفيد التراخي.

وليس السياق كذلك في آية الأنبياء.

وقد ذكرنا آنفًا أن هذه الآية مناسبة لما ورد في أول السورة من ذكر للحساب وهو قوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾. والحساب قبل القضاء بدخول الجنة أو النار.

جاء في (البرهان) للكرماني: «قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ وفي العنكبوت: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ لأن (ثم) للتراخي، والرجوع هو الرجوع إلى الجنة أو النار، وذلك في القيامة.

وخصت هذه السورة بالواو لما حيل بين الكلامين بقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم

﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ . وإنما ذكرا لما لم يتقدم ذكرهما . فقام مقام التراخي وناب الواو منابه»[1] .

* * *

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٦﴾

(إذا) ظرف زمان تجردت للظرفية وليس فيها معنى الشرط ، بدليل عدم اقتران جوابها بالفاء ، نظير قوله: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ [الجاثية: ٢٥].

و(هزوًا) مصدر بمعنى اسم المفعول ، أي مهزوءًا بك ، وذلك للمبالغة.

لقد نفى الفعل (يتخذونك) بإنْ دون (ما) ذلك أن النفي بـ (إنْ) أقوى من النفي بـ (ما).

ولم يقل: (وإذا رآك الذين كفروا اتخذوك مهزوءًا بك) وإنما قال: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ فجاء بـ (إنْ) و(إلا) للقصر ، أي لم يعاملوه بمعاملة أخرى غير الاستهزاء ، فقصروا معاملتهم له على الاستهزاء[2] ، وذلك للمبالغة في ذلك.

وقال: (هزوًا) بالمصدر للمبالغة كما ذكرنا.

فكانت المبالغة بالقصر ، والنفي بـ (إنْ) ، وبالمصدر دون الوصف.

وجاء بالفعل المضارع (يتخذونك) للدلالة على تكرر الاستهزاء.

---

(١) البرهان ٢٤٠.

(٢) انظر تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠١.

وحذف القول، أي: قائلين أو يقولون: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾.

وقولهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ استهزاء به، أي يعيبها ويذكرها بسوء، وتعظيم لآلهتهم التي لا ينبغي لأحد أن يعيبها بل ينبغي أن يعظمها ـ فيما يرون ـ.

والغريب أنهم بذكر الرحمن الذي خلقهم وأفاض عليهم بالنعم كافرون وأنهم يعظمون آلهة اتخذوها لا تضر ولا تنفع ولا تعقل ولا تنطق ولا تسمع ولا تبصر.

وقوله: ﴿بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يحتمل أن يكون المقصود به ذكر الله بما يجب أن يذكر، كما يحتمل أن يكون المقصود بذكر الرحمن القرآن، وقد سماه الله ذكرًا في أول السورة فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾.

وقال في الشعراء: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾

وكلاهما مقصود، فهم كافرون بالرحمن وبالقرآن الذي هو ذكر من الرحمن.

جاء في (الكشاف): «الذكر يكون بخير وبخلافه، فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد، كقولك للرجل: (سمعت فلانًا يذكرك)، فإن كان الذاكر صديقًا فهو ثناء، وإن كان عدوًّا فذم، ومنه قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ۝٦٠﴾، وقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ . . . وأما ذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوحدانية فهم به كافرون لا يصدّقون به أصلاً، فهم أحق بأن يتخذوا هزوًا منك . . .



وقيل: (بذكر الرحمن): بما أنزل عليك من القرآن»[١].

والضمير الثاني في قوله: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ توكيد للأول.

جاء في (تفسير أبي السعود): «والضمير الثاني تأكيد لفظي للأول فوقع الفصل بين العامل ومعموله بالمؤكد وبين المؤكِّد والمؤكَّد بالمعمول»[٢].

وجاء في (نظم الدرر): «وكرر الضمير تعظيمًا بما أتوا به من القباحة فقال: (هم)»[٣].

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

فختم الآية بقوله: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

وقال في سورة الفرقان: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾.

فختم الآية بقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾، فما توجيه ذلك؟

فنقول: إن السياق في الأنبياء في ذكر الرحمن سبحانه وما أفاض من الخلق والنعم، فقد قال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ...﴾.

واستمر في ذكر ما فعله سبحانه من نحو قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٨.
(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠١.
(٣) نظم الدرر ١٢ / ٤٢٠.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ . . . . . وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ . . . وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ . . . وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ . . . وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ .

وبعد الآية قال: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ فالسياق فيما أفاض ربنا من الخلق والنعم، فناسب ختم الآية بذكر الرحمن.

في حين كان السياق في الفرقان في الكلام على الرسول، فقد قال سبحانه بعد آية الفرقان: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ ﴿٤٢﴾﴾. وتقدم الكلام على الرسول فقد قال سبحانه: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ . . . وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ . . .﴾ .

ثم قال: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ . . .﴾ فناسب ختم الآية بذكر الرسول.

جاء في (ملاك التأويل) في بيان المناسبة لخاتمة كل من الآيتين «أنه لما تقدم في سورة الأنبياء قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾، وقوله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ وقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ ءَالِهَةٗۖ ﴿٢٤﴾﴾، فتكرر ذكر مرتكبهم في اتخاذهم معبودات لا تغني عنهم، ناسبه قولهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾.

أما آية الفرقان فقد تقدمها قوله: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ فأنكروا كون الرسول من البشر، فجرى مع



ذلك وناسبه قولهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١﴾ تعجبًا واستبعادًا أن يكون الرسل من البشر. وقد رد ذلك عليهم بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ فوضح التناسب فيها، والله أعلم»[١].

* * *

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝٣٧﴾

لما كان الإنسان مطبوعًا على العجلة معتادًا لها قال سبحانه: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كأنه مخلوق منها على سبيل المبالغة. والإنسان من صفاته العجلة كما قال سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

جاء في (تفسير أبي السعود): «جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه... إيذانًا بغاية لزومه له وعدم انفكاكه عنه»[٢].

وبنى الفعل (خلق) للمجهول لأن هذه الصفة غير محمودة فلم يرد أن يسندها إليه سبحانه، والخالق معلوم. وهذا كثير جارٍ في القرآن الكريم[٣].

ونحو ذلك قوله سبحانه: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢١].

في حين قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] لما كان ذلك

---

(١) ملاك التأويل ٢ / ٦٩٥.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠١ وانظر نظم الدرر ١٢ / ٤٢٠، البحر المحيط ٦ / ٣١٢.

(٣) انظر كتابنا (التعبير القرآني) ـ تفسير سورة التين.

من مظاهر نعمته عليه.

قال سبحانه في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ إلى أن قال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] ثم ذكر أنه أسجد له ملائكته أجمعين فقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾.

وهذا تكريم لآدم فقال: (خلقت).

﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

وآياته هي آيات الوعيد التي ستحل بهم في الدنيا، وعذاب الآخرة الذي وعدهم به.

وقيل: هي أدلة التوحيد التي تدل على صدق الرسول.

جاء في (البحر المحيط): «أي آيات الوعيد، فلا تستعجلون في رؤيتكم العذاب الذي تستعجلون به...

والآيات هنا قيل: الهلاك المعجل في الدنيا والعذاب في الآخرة، أي يأتيكم في وقته.

وقيل: أدلة التوحيد وصدق الرسول»(١).

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ فإنها ليست في مصلحتكم، وإذا وقعت تمنيتم أنها لم تقع، سواء ما كان في الدنيا أم ما يكون في الآخرة.

* * *

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣١٢ ـ ٣١٣ وانظر روح المعاني ١٧ / ٤٩.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

يقولون ذلك استهزاء بما وعدهم رسولهم[1].

وقال: (يقولون) ولم يقل: (قالوا) للدلالة على تكرر القول منهم.

وقال: (هذا الوعد) بحرف الإشارة للقريب، ولم يقل: (ذلك) للدلالة على أنهم يقولون ذلك حين يعدهم ولا يدعون ذلك فيقولونه بعد حين.

وقوله: ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ يدل على أن المسلمين كانوا يعدونهم بما أنزل الله كما يعدهم رسولهم فقالوا: ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ بالجمع، ولم يقولوا: (إن كنت من الصادقين) فيجعلون الخطاب للرسول وحده.

في حين قال في الرسل الآخرين: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فجعلوا الخطاب للرسول فهو الذي كان يعدهم، وذلك في عاد قوم هود (انظر الأعراف ٧٠، الأحقاف ٢٢)، وقوم نوح (انظر هود ٣٢)، وقوم صالح إذ قالوا لرسولهم: ﴿ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧].

في حين ورد قوله سبحانه: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ في ستة مواضع كلها في خطاب أصحاب الرسول وذلك في يونس ٤٨، والأنبياء ٣٨، والنمل ٧١، وسبأ ٢٩، ويس ٤٨، والملك ٢٥.

مما يدل على أن المسلمين كانوا يبلّغون ما أرسل به رسولهم.

---

(١) انظر البحر المحيط ٦ / ٣١٣، روح المعاني ١٧ / ٤٩.

وهذه إشارة إلى أن المسلمين ما كانوا يقعدون عن الدعوة إلى الله سبحانه وتبليغ ما أنزل إليهم.

* * *

﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

جواب (لو) محذوف للتهويل والتعظيم ولتذهب النفس كل مذهب[(١)] ، ولأن الكلمات لا تفي ببيان كيف تكون حالهم هناك.

و(حين) مفعول (يعلم) أي لو يعلمون ذلك الوقت ، ولا يصح أن يكون ظرفاً ، فإنه لا يصح أن يكون المعنى (لو يعلمون في ذلك الوقت) فإنهم في ذلك الوقت يكونون قد علموه وذاقوه.

وقال: (لو يعلم) ولم يقل: (لو علم) لأن عدم العلم مستمر.

جاء في (روح المعاني): «وإيثار صيغة المضارع في الشرط وإن كان المعنى على المضي لإفادة استمرار عدم العلم» [(٢)].

وذكر الاسم الموصول وهو (الذين كفروا) ولم يذكر ضميرهم كما كان في الآية السابقة وهو قوله: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ليبين علة استحقاق العذاب وهو الكفر وليدل على أن الذين استعجلوا هم الكفار.

جاء في (روح المعاني): «ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٧ / ٧٠ ، البحر المحيط ٦ / ٣١٣.
(٢) روح المعاني ١٧ / ٤٩.

في حيز الصلة على علة استعجالهم»[(١)].

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي لا من آلهتهم التي كانوا يعظمونها ولا من غيرهم بل يتركون للعذاب.

وقدم الوجوه على النار في قوله: ﴿لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ وذلك لأنها أهم، فإنهم هم المعذبون والكلام عليهم والوجوه وجوههم، فإنه ليس المهم كف النار ولكن المهم أن يكون الكف عن وجوههم هم.

قدم الوجوه على الظهور؛ لأن الوجه أكرم والعذاب عليها أشد، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤].

جاء في (الكشاف): «جواب (لو) محذوف، و(حين) مفعول به لـ (يعلم)، أي لو يعلمون الوقت الذي يستعلمون عنه بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم، ولا يجدون ناصرًا ينصرهم لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم به هو الذي هوّنه عندهم.

ويجوز أن يكون (يعلم) متروكًا بلا تعدية، بمعنى: لو كان معهم علم ولم يكونوا جاهلين لما كانوا مستعجلين. و(حين) منصوب بمضمر، أي حين لا يكفون عن وجوههم النار يعلمون أنهم كانوا على الباطل»[(٢)].

قد تقول: لقد قال في هذه الآية إنهم لا يكفون النار عن وجوههم ولا عن ظهورهم، فذكر الوجوه والظهور.

وقال في العنكبوت: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ

---

(١) روح المعاني ١٧ / ٤٩.
(٢) الكشاف ٢ / ٣٢٩.

﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٥﴾ .

فذكر أنهم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فما اللمسة البيانية في ذكر ما ذكر في كل موضع؟

فنقول: إنه قال في الأنبياء: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ .

فقال: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾

والرؤية إنما تكون إذا استقبلوا المرئي بوجوههم فإن الرؤية إنما تكون بالعين ، والعين إنما هي في الوجه .

وقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ إنما تكون عند استقبالهم له بأوجههم أو عند إدباره عنهم .

والإدبار إنما هو تولية الظهر فقال: ﴿لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ ، وذلك يشمل الإقبال والإدبار .

في حين قال في العنكبوت: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٣ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٤ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٥﴾ .

فقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ، والإحاطة عامة تشمل الأمام والخلف والجوانب .

ثم ذكر أن العذاب يغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، أي يغطيهم ، والغشاء: الغطاء ، فلم يترك جهة من الجهات إلا شملها العذاب .

فالعذاب في العنكبوت دخل فيه ما ذكر في الأنبياء وزيادة. فإنه لما

قال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ دخل في ذلك الخلف والأمام والجوانب ـ كما ذكرنا ـ ، ثم ذكر أنه يغطي الفوق والأسفل فكانت الإحاطة بالعذاب شاملة ، وهي أشمل وأعم مما ذكر في الأنبياء.

وهذا مناسب لاستعجالهم بالعذاب ووصفهم بالكفر على جهة الثبوت ، فقد ذكر استعجالهم بالعذاب مرتين فقال: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ ثم قال: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

ولم يذكر في الأنبياء الاستعجال بالعذاب ، وإنما قال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ولم يذكر أنه وعدٌ بالعذاب ، وإنما قال: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾.

ثم ذكر وصفهم بالكفر على جهة الثبوت فقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فذكر وصفهم بالكفر على جهة الثبوت فجاء بالصيغة الاسمية في قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾. في حين ذكر اتصافهم به في الأنبياء بالصيغة الفعلية فقال: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ، والفعل يدل على الحدوث كما هو معلوم ، فكان العذاب في العنكبوت أعم من عدة جهات.

فقد ذكر الوجوه والظهور في الأنبياء.

في حين ذكر الإحاطة في العنكبوت ، والإحاطة أعم من الوجوه والظهور ، فإن الوجه جزء من الأمام ، والظهر جزء من الخلف ، في حين أن الإحاطة تشمل الأمام كله ، والخلف كله ، وتشمل الجانبين.

وذكر الفوق فقال: (من فوقهم) ولم يقل: (فوقهم) ليدل على أن العذاب يغشاهم أي يغطيهم من فوقهم من دون فاصل ، وكذلك قوله: (من تحت أرجلهم).

ثم قال: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والذوق يكون بالملامسة. فكان العذاب في العنكبوت أعم وأشد.

وكل مناسب لموضعه الذي ورد فيه.

* * *

﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠)﴾

أي بل تأتيهم النار أو الساعة فجأة فتحيّرهم وتغلبهم فلا يستطيعون ردها. لقد قال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ ولم يقل: (فلا يردونها) لئلا يفهم أنهم قد يكون باستطاعتهم ذلك ولكنهم لا يفعلون، وإنما قال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ فنفى الاستطاعة.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون فيستريحوا.

وجاء بالحال مصدرًا فقال: (بغتة) أي مباغتة لهم للمبالغة.

وجاء بالفاء فقال: (فتبهتهم) للدلالة على السبب والتعقيب من دون مهلة، ولم يقل: (وتبهتهم).

ثم قال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ فجاء بالفاء الدالة على السبب والتعقيب.

وقال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ ولم يقل: (فلا يردونها) لما ذكرت.

وقال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ ولم يقل: (فلا يستطيعون أن يردوها) أي في المستقبل؛ لأن (أنْ) تصرف المضارع إلى الاستقبال، وإنما جاء بالاسم للدلالة على أنهم لا يستطيعون ردها على كل حال وفي جميع الأزمنة.

ثم قال: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ فلا يمهلون، وهو مناسب للمجيء بالفاء

الدالة على التعقيب من دون مهلة.

جاء في (الكشاف): «يقال للمغلوب في المحاجّة: مبهوت، ومنه ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]» (١).

وجاء في (البحر المحيط): «﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ أي تفجؤهم...

والظاهر أن الضمير في (تأتيهم) عائد على النار، وقيل: على الساعة التي تصيرهم إلى العذاب، وقيل: على العقوبة» (٢).

وجاء في (تفسير أبي السعود): «(فتبهتهم) أي تغلبهم أو تحيّرهم...

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي يمهلون ليستريحوا طرفة عين. وفيه تذكير لإمهالهم في الدنيا» (٣).

* * *

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾

قيل في الفرق بين الاستهزاء والسخرية: «إن الإنسان يستهزأ به من غير أن يسبق منه فعل يستهزأ به من أجله.

والسخر يدل على فعل يسبق من المسخور منه» (٤).

والملاحظ في التعبير القرآني أن الاستهزاء يستعمله فيما هو أعم من السخرية. فإن السخرية لم يستعملها القرآن إلا مع الأشخاص.

قال تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٩.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣١٤.

(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٣.

(٤) الفروق اللغوية ٢٦٨.



وقال: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

وقال: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

وقال: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١].

وقال: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢١٢].

أما الاستهزاء فهو عام يكون من الأشخاص وغيرهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: ٥٨].

وقال: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

وقال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الروم: ١٠].

وقال: ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

وقال: ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

وقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الفرقان: ٤١].

لقد ذكر في آية الأنبياء هذه الاستهزاء والسخرية فقال: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، ثم قال: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم﴾.

والذي يبدو أن معنى الآية أن الكفار استهزؤوا بهم وبما جاؤوا به وسخروا منهم ومن عملهم، فجمع بين الاستهزاء والسخرية فحاق بالذين سخروا من الرسل ما كانوا يستهزئون به ومما كانوا يذكّرونهم به من الآيات والعذاب وما جاءت به رسلهم.

وهو عدة للرسول وإنذار للمستهزئين أن يصيبهم مثل ما أصاب

الأولين. جاء في (تفسير أبي السعود): «تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزائهم به عليه السلام في ضمن الاستعجال وعدة ضمنية بأنه يصيبهم مثل ما أصاب المستهزئين بالرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام»[(١)].

وجاء في (روح المعاني): «وقيل: إن المراد من الذي كانوا يستهزئون هو العذاب الذي كان الرسل يخوفونهم إياه»[(٢)].

وقدم الجار والمجرور (بالذين سخروا) على فاعل (حاق) وهو ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ لأن المعنى يقتضي ذاك، فلا يصح أن يقال: (لقد استهزئ برسل من قبلك فحاق ما كانوا به يستهزئون بالذين سخروا منهم) أو هو ضعيف، لأن الضمير في (كانوا) عند ذاك لا يعود على مذكور متقدم؛ لأنه لم يتقدم ذكر للمستهزئين، فإن الفعل مبني للمجهول، بخلاف قوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فإن الضمير في (كانوا) يعود على المتقدم وهو (الذين سخروا منهم).

وجاء في (تفسير أبي السعود): «وتقديمه على فاعله الذي هو قوله تعالى: (ما كانوا به) للمسارعة إلى بيان لحوق الشر بهم»[(٣)].

وبنى الفعل (استهزئ) للمجهول لأنه لا يتعلق غرض بذكر الفاعل، فإن العقوبة تتعلق بالاستهزاء أيًا كان فاعله. إذ لو ذكر الفاعل لربما أفهم أن العقوبة إنما حصلت لأن الفاعل هم هؤلاء المذكورون، ولو كان غيرهم لم تكن العقوبة كذلك أو أنهم لم يعاقبوا.

جاء في (نظم الدرر): «ولما كان المخوف نفس الاستهزاء لا كونه من

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ٧٠٣.
(٢) روح المعاني ٧/ ١٠٢.
(٣) تفسير أبي السعود ٣/ ٧٠٣ ـ ٧٠٤.

معين بنى للمفعول قوله: ﴿ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ أي كثيرين»[1].

* * *

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾

بعد أن ذكر استهزاءهم واستبعادهم لما وعدهم به رسوله أمر سبحانه رسوله أن يسألهم مقرعًا لهم: من الذي يحميهم ويحفظهم من بأس الله وعذابه الذي يستحقونه على وجه الدوام في الليل والنهار، فهم مستحقون لذلك لولا رحمته بهم. وقد ألمح باسمه (الرحمن) أنه حفظهم من ذلك برحمته وهو سينزله بهم إذا اقتضت حكمته ذلك.

وقدم الليل على النهار لأن الداهية به أعظم وأشد وقعًا فإنهم عند ذاك غافلون ولأنهم غير متوقعين ولا منتظرين لشيء من ذلك بل تفجؤهم.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧ ـ ٩٨] فقدم البيات وهو الليل على النهار.

ونحوه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٥٠].

وقوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

وفي ذلك تخويف أعظم وأشد.

جاء في (البحر المحيط): «ثم أمره تعالى أن يسألهم من الذي

---

(١) نظم الدرر ١٢ / ٤٢٣.

يحفظكم في أوقاتكم من بأس الله ، أي لا أحد يحفظكم منه. وهو استفهام تقريع وتوبيخ» [١].

وجاء في (تفسير أبي السعود): «أي من بأسه الذي تستحقون نزوله ليلاً أو نهارًا.

وتقديم الليل لما أن الدواهي أكثر فيه وقوعًا وأشد وقعًا.

وفي التعرض لعنوان الرحمانية إيذان بأن كالئهم ليس إلا رحمته العامة» [٢].

وجاء في (نظم الدرر): «ولما كان لا منعم بكلاية ولا غيرها سواه سبحانه ذكرهم بذلك بصفة الرحمة فقال: (من الرحمن) الذي لا نعمة بحراسة ولا غيرها إلا منه حتى أمنتم مكره ولو بقطع إحسانه» [٣].

﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾

فهم معرضون عن ذكر ربهم الذي أنعم عليهم وأحسن إليهم. وأضاف الضمير إليهم ليذكرهم بربوبيته لهم وإحسانه وتفضله عليهم.

وقال: (معرضون) بالاسم للدلالة على دوام الإعراض عن ذكره سبحانه.

جاء في (تفسير أبي السعود): «وإيراد اسم الرب المضاف إلى ضميرهم المنبئ عن كونهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته تعالى من الدلالة على كونهم في الغاية القاصية من الضلالة والغي ما لا يخفى» [٤].

* * *

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣١٤.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٤.

(٣) نظم الدرر ١٢ / ٤٢٤.

(٤) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٥.

﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

* * *

هذا التعبير يحتمل معنيين كلاهما مراد:

الأول: بل ألهم آلهة تمنعهم من أن ينالهم مكروه يقع عليهم من جهتنا؟

والآخر: ألهم آلهة غيرنا تمنعهم وتحفظهم؟

ثم استأنف فذكر أن هذه الآلهة لا تستطيع أن تنصر نفسها، وأنهم لا يصحبون منا بنصر ولا تأييد فكيف ينصرونهم، فهم أعجز من ذلك؛ فليس لهم القدرة في أنفسهم ونحن لا نعينهم فهم ليست لهم قيمة ولا مكانة.

جاء في (الكشاف): «ثم أضرب عن ذلك بما في (أم) من معنى (بل) وقال: ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم ﴾ من العذاب تتجاوز منعنا وحفظنا.

ثم استأنف فبين أن ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعهاولا بمصحوب من الله بالنصر والتأييد كيف يمنع غيره وينصره؟»[1].

وجاء في (البحر المحيط): «قيل: والمعنى ألهم آلهة تجعلهم في منعة وعز من أن ينالهم مكروه من جهتنا....

[وقيل] أم لهم مانع من سوانا»[2].

وجاء في (روح المعاني): «وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ أي لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٩.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣١٤.

ويدفعوا عنها ما ينزل بها ولا هم منا يصحبون بنصر أو بمن يدفع عنهم ذلك من جهتنا. فهم في غاية العجز وغير معتنى بهم فكيف يتوهم فيهم ما يتوهم؟» [(١)].

وقال: ﴿وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ فقدم (هم) أي ليسوا هم الذين يصحبون منا وإنما غيرهم هم الذين نعينهم ونكون معهم وننصرهم وهم المؤمنون بي وبرسولي كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩] ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

وقدم (منا) على (يصحبون) أي لا يصحبون منا وإنما يصحبون من غيرنا وهم الذين يعبدونهم، فهم الذين ينصرونهم ويدفعون عنهم كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤ ـ ٧٥].

وكما قال في قوم إبراهيم: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

فهؤلاء عاجزون لا أحد يمنعهم من الله.

فهم عاجزون وآلهتهم أعجز فما أضلهم وأخسرهم!!

* * *

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

أي نحن حفظناهم ومتعناهم هم وآباءهم وليست آلهتهم ولا أحد غيرنا

(١) روح المعاني ١٧ / ٥٢.

فلا يغتروا بذلك ويظنوا أنهم سيبقون على حالتهم من التمتيع والطمأنينة. أفلا يرون أنا نأتي على دار الكفر وننقصها شيئًا فشيئًا ونمكن منهم المسلمين فيفتحون ديارهم؟

جاء في (الكشاف): «ثم قال: بل ما هم فيه من الحفظ والكلاءة إنما هو منا، لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا. وما كلأناهم وآباءهم الماضين إلا تمتيعًا لهم بالحياة الدنيا وإمهالاً كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم حتى طال عليهم الأمد وامتدت بهم أيام الروح والطمأنينة فحسبوا أن لا يزالوا على ذلك لا يغلبون ولا ينزع عنهم ثوب أمنهم واستمتاعهم وذلك طمع فارغ...

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا﴾ ننقص أرض الكفر ودار الحرب ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وردها دار إسلام... وإن عساكرهم وسراياهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها ناقصة من أطرافها»[(١)].

وقال: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا﴾ و﴿أَنَّا نَأْتِي﴾ و﴿نَنقُصُهَا﴾ بإسناد ذلك إلى ضميره سبحانه ليدل على أن ذلك كله بإرادته وحوله وقوته وليس بما جرت عليه الأحوال، وإنما هو بتسليطنا جيوش المسلمين عليهم. وكان الأصل أن يقال: (يأتي جيوش المسلمين فيغلبونهم) ولكنه أسند الإتيان إليه سبحانه لأن ذلك بنصره وتأييده.

جاء في (روح المعاني): «وكان الأصل: يأتي جيوش المسلمين، لكنه أسند الإتيان إليه عز وجل تعظيمًا لهم [أي تعظيمًا لجيوش المسلمين] وإشارة إلى أنه بقدرته تعالى ورضاه. وفيه تعظيم للجهاد والمجاهدين»[(٢)].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٩.

(٢) روح المعاني ١٧ / ٥٣.

قد تقول: لقد قال في الرعد: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا﴾ [الرعد: ٤١].

فقال: (أولم) بإدخال (لم) على الفعل.

ومن المعلوم أن (لم) تقلب زمن المضارع إلى المضي.

في حين قال في آية الأنبياء: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ بإدخال (لا) على الفعل المضارع.

و(لا) الداخلة على المضارع تصرفه إلى الاستقبال غالبًا وقد تكون للحال.

فكان السؤال عن الرؤية في الرعد في الماضي.

وأما في الأنبياء فالسؤال عن الرؤية في الحال والاستقبال، فلم ذاك؟

والجواب أنه قال بعد آية الرعد: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ﴿٤٢﴾﴾.

وهذا إخبار عن ماض، فذكر ما فعله ربنا بهم، فناسب إدخال (لم) التي تفيد المضي.

في حين قال في الأنبياء: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ وهذا إنذار وتخويف مما يقع لهم في المستقبل.

وقال: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

وهذا تحذير لهم مما يقع في المستقبل، فناسب إدخال (لا) وذلك تذكير لهم بما يحصل لهم في الحال والاستقبال. والله أعلم.

* * *

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

شبه المخاطبين بالإنذار المدعوين إلى الإسلام بالصم. فهو بدل أن يقول: (وهؤلاء لا يسمعون الإنذار ولا يلتفتون إليه) قال: ﴿ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ فهم أشبه بالصم فلا ينفع معهم إنذار.

وذكر نفي السمع لأن الإنذار مما يسمع. جاء في (الكشاف): «فإن قلت: الصم لا يسمعون دعاء المبشر كما لا يسمعون دعاء المنذر، فكيف قيل: ﴿ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾؟

قلت: اللام في (الصم) إشارة إلى هؤلاء المنذرين كائنة للعهد لا للجنس.

والأصل: ولا يسمعون إذا ما ينذرون. فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامّهم وسدّهم أسماعهم إذا أنذروا. أي هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة على التصام من آيات الإنذار» [١].

وجاء في (البحر المحيط): «ولما كان الوحي من المسموعات كان ذكر الصمم مناسبًا.

والصم هم المنذرون، فـ (أل) فيه للعهد» [٢].

وقال: ﴿ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ ولم يقل: (ولا يسمع الصم الكلام) لأن الدعاء يكون عادة برفع الصوت. فإن هؤلاء حتى لو رفع الصوت لا يسمعونه للدلالة على شدة تصامّهم.

جاء في (تفسير أبي السعود): «كما أن إيثار الدعاء الذي هو عبارة عن الصوت والنداء على الكلام لذلك فإن الإنذار عادة يكون بأصوات عالية

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٩.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣١٥.

مكررة مقارنة لهيئات دالة عليه» [١].

وقال: (إذا ما ينذرون) بالفعل المضارع ، ولم يقل: (إذا ما أنذروا) أي ولو تكرر دعاؤهم وإنذارهم.

جاء بـ (ما) الزائدة المؤكدة للدلالة على أنهم لا يسمعون ولو بولغ في إنذارهم ورفع الصوت بذلك وتكرر.

ففي التعبير أكثر من دلالة على شدة تصامهم ، منها:

أنه وصفهم بالصمم.

وأنه ذكر الدعاء وهو رفع الصوت.

وجاء بـ (إذا) الدالة على تحقق الإنذار ولم يأت بـ (إن).

وجاء بـ (ما) الزائدة المؤكدة.

وجاء بالفعل المضارع الدال على تكرر الإنذار.

قد تقول: لقد قال في النمل: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

ونحوه قال في الروم ٥٢.

فختم الآيتين بقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ ، في حين ختم آية الأنبياء بقوله: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

فلم الاختلاف بين الخاتمتين؟

فنقول: أما خاتمة آية الأنبياء فظاهرة المناسبة لأول الآية وهو قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ فكلاهما في الإنذار.

وأما آيتا النمل والروم فقد قال في أولهما: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ،

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٦.

والموت إدبار عن الحياة ، فناسب ذكر الإدبار في قوله : ﴿ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ .

فكلاهما مدبر ، أحدهما مدبر عن الحياة ، والآخر مدبر عن السماع فهم بمنزلة الأموات .

* * *

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

أي ولئن أصابهم أدنى شيء مما أنذروا به في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ لنادوا بالويل وأقروا بالظلم .

وفي التعبير عدة مبالغات ، منها :

التعبير بالمس في قوله : ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ﴾ ، والمس دون النفوذ ، أي ولئن أصابهم أدنى شيء .

والتعبير بالنفح وما فيه من لفظ القلة والنزارة ، فإن أصل النفح هبوب رائحة الشيء أو العطاء اليسير .

وبناء المرة في قوله : (نفحة) أي نفحة واحدة يسيرة من رائحة العذاب لنادوا بالويل وقالوا : (يا ويلنا) .

وإقرارهم بالظلم واتصافهم به على جهة الثبوت .

وأكد ذلك بالقسم في قوله: (ولئن) ، والجواب في : (ليقولن) وتوكيده بالنون الثقيلة ، والتوكيد بـ (إن) في قوله : (إنا كنا) ، والإقرار بالظلم على جهة الثبوت بالصيغة الاسمية .

وأضاف العذاب إلى الرب مضافًا إلى كاف المخاطب لأنه هو الذي أنذرهم بالوحي من ربه .

جاء في (الكشاف) «﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ ﴾ من هذا الذي ينذرون به أدنى شيء لأذعنوا وذلوا وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا.

وفي المس والنفحة ثلاث مبالغات، لأن النفح في معنى القلة والنزارة... نفحه بعطية: رضخه، ولبناء المرة» [(١)].

وجاء في (روح المعاني): «ذكر المس وهو دون النفوذ ويكفي في تحققه إيصال ما.

وما في النفح من معنى النزارة فإن أصله هبوب رائحة الشيء... نفحه بعطية: رضخه وأعطاه يسيراً.

وبناء المرة وهي لأقل ما ينطلق عليه الاسم.

وجعل السكاكي التنكير رابعتها لما يفيده من التحقير» [(٢)].

* * *

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

لما ذكر إقرار المنذرين بالظلم على وجه الثبوت في الآية السابقة بقولهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ ذكر ربنا أنه عنده لا تظلم نفس شيئًا مهما قل، وأن أعمال العباد إنما توزن بميزان هو العدل بعينه فقال:

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ فوصف الموازين بالمصدر وهو القسط، أي هي العدل بعينه. ومن المعلوم أن الوصف بالمصدر يفيد المبالغة في الاتصاف بالشيء.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٩ ـ ٣٣٠، وانظر البحر المحيط ٦ / ٣١٦.

(٢) روح المعاني ١٧ / ٥٤.

وجيء بالموازين على صيغة الجمع إما لكثرة من توزن أعمالهم أو لتعدد الموزونات وتنوعها[١].

وقوله: (ليوم القيامة) قيل: أي في يوم القيامة، أو عند يوم القيامة، ويحتمل أن يكون للتعليل، أي لأجل يوم القيامة[٢].

وكل ذلك محتمل.

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾

نكّر النفس لتشمل جميع النفوس.

و(شيئًا) يحتمل أن يكون معناه شيئًا من الأشياء فيكون مفعولاً به، كما يحتمل أن يكون: شيئًا من الظلم فيكون مفعولاً مطلقًا لدلالته على المصدر.

وكلا المعنيين مراد.

فهي لا تظلم شيئًا من الأشياء ولا شيئًا من الظلم. وهو من التوسع في المعنى. ولو قال: (شيئًا من الظلم) لتخصص المعنى بشيء واحد، ولكنه أطلق.

جاء في (الكشاف): «وصفت الموازين بالقسط، وهو العدل، مبالغة، كأنها في أنفسها قسط، أو على حذف المضاف، أي ذوات القسط.

واللام في: (ليوم القيامة) مثلها في قولك: (جئته لخمس خلون من الشهر)...

---

(١) انظر التفسير الكبير للرازي، المجلد ٨ / ١٤٩، نظم الدرر ١٢ / ٤٢٨.

(٢) انظر مغني اللبيب (اللام) ١ / ٢١٦، الكشاف ٢ / ٣٣٠، البحر المحيط ٦ / ٣١٦.

وقيل: لأهل يوم القيامة، أي لأجلهم»[١].

وجاء في (تفسير أبي السعود): «(فلا تظلم نفس) من النفوس (شيئًا) حقًّا من حقوقها أو شيئًا من الظلم... والفاء لترتيب انتفاء الظلم على وضع الموازين»[٢].

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾

أي وإن كان الشيء أو العمل مقدار حبة من خردل أتينا به.

«ومثقال الشيء ميزانه في مثله. ومثقال ذرة أي وزن ذرة»[٣]، ومثقال حبة أي وزن حبة.

وأنث ضمير المثقال في قوله: (أتينا بها) لأنه أضيف إلى مؤنث وهو الحبة كقولهم: (ذهبت بعض أصابعه)[٤]، وقوله: (كما شرقت صدر القناة من الدم)، وقوله: (تواضعت سور المدينة) في قول الشاعر:

لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع

والعدول من التذكير إلى التأنيث في قوله: ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ على كثرته في اللغة في نحو هذا فيه معنى لطيف.

ذلك أنه قال: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ والشيء ـ كما ذكرنا ـ يحتمل أن يكون معناه العمل أو الظلم أو شيئًا من الأشياء. وهذا الشيء قد يكون حبة من خردل أو مقدار الحبة فأعاد الضمير بالتأنيث ليشمل المعنيين: المصدر وحبة الخردل ومقدار ذلك.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٠ وانظر البحر المحيط ٦ / ٣١٦.
(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٧.
(٣) لسان العرب (ثقل)، المصباح المنير (ثقل)، تاج العروس (ثقل).
(٤) انظر الكشاف ٢ / ٣٣٠.

وهذا من لطيف الدلالة.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾

«فيه توعد وهو إشارة إلى ضبط أعمالهم من الحساب، وهو العد والإحصاء...

والظاهر أن (حاسبين) تمييز... ويجوز أن يكون حالاً»[١].

* * *

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

* * *

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

لما ذكر الإنذار بالوحي قبل هذه الآية في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ والوحي هو القرآن ناسب ذكر ما آتى موسى وهارون وهو ما ذكره في الآية.

وقد بدأ بقصة موسى وهارون وذكر ما آتاهما من الفرقان والذكر مناسبة لما ذكره بعد الآية مما أنزله ربنا على رسوله من الذكر، ولم يذكر أنه أنزل على المذكورين من الأنبياء في السورة كتابًا أو ذكرًا، فناسب البدء بذكر موسى مناسبة للسياق الذي ورد فيه ذكرهما.

وجاء في (التحرير والتنوير) أنه: «ابتدئ بذكر موسى وأخيه مع قومهما لأن أخبار ذلك مسطورة في كتاب موجود عند أهله يعرفهم العرب»[٢].

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣١٧.

(٢) التحرير والتنوير ١٧ / ٨٨.

إن التعبير في الآية يحتمل أكثر من دلالة:

فالفرقان يحتمل أن يكون التوراة ، ويحتمل أن يكون الآيات الدالة على صدقه من المعجزات.

والضياء يحتمل أن يكون المقصود به التوراة أيضًا، فإنها ضياء. وهي ذكر للمتقين وموعظة. وقيل: هي شرف لهم لأن من معاني الذكر الشرف.

وهو قد يفرق بين الكتاب والفرقان بالعطف وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣].

وقد يجعل النور حالاً للكتاب ، قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١].

وذكر ههنا أنها ضياء ، ولم يذكر ذلك في موضع آخر ، وإنما يذكر أنها نور كما في آية الأنعام السابقة ، أو فيها نور كما في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤].

ذلك «أن النور أعم من الضياء ، والضياء حالة من حالات النور ، وهو أخص منه . . .

وقد ذكر في آية الأنبياء أنه: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ، وهم أخص ممن ذكر في الآيتين الأخريين. فقد قال في آية المائدة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي لليهود ، والمتقون أخص من اليهود وهم جزء منهم.

وقال في آية الأنعام: ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ فجعله للناس. وهم أعم من المتقين المذكورين في آية الأنبياء. والمتقون جزء منهم.

فجعل النور الذي هم أعم من الضياء للذين هم أعم ، وهم اليهود والناس. وجعل الضياء الذي هو أخص للذين هم أخص ، وهم المتقون الذين يخشون ربهم وهم من الساعة مشفقون.

فناسب العموم العموم ، والخصوص الخصوص.

من ناحية أخرى أن الضياء إنما هو الساطع من النور أو هو التام منه[١] . وإن المتقين إنما هم جماعة ساطعة من بين عموم المؤمنين أو الناس وحالهم أتم وأكمل.

فناسب بين سطوع المتقين وسطوع النور وهو الضياء.

فالمتقون من بين عموم المؤمنين كالضياء من النور» [٢] .

جاء في (الكشاف): «أي آتيناهما الفرقان وهو التوراة وآتينا به ضياء وذكرًا للمتقين.

والمعنى: أنه في نفسه ضياء وذكر. أو آتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياء وذكرًا. . . والذكر: الموعظة ، أو ذكر ما يحتاجون إليه في دينهم ومصالحهم ، أو الشرف» [٣] .

وجاء في (البحر المحيط): «وقالت فرقة: الفرقان ما رزقه الله من نصره وظهور حجته وغير ذلك مما فرق بين أمره وأمر فرعون.

والضياء: التوراة ، والذكر: التذكرة والموعظة. . .

والعطف بالواو يؤذن بالتغاير» [٤] .

---

(١) انظر تفسير الرازي ٦ / ٢٠٩.

(٢) أسئلة بيانية في القرآن الكريم ١ / ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٣) الكشاف ٢ / ٣٣٠.

(٤) البحر المحيط ٦ / ٣١٧.

وجاء في (روح المعاني): «والمراد بالفرقان التوراة، وكذا بالضياء والذكر. والعطف كما قوله:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

ونقل الطيبي أنه أدخل الواو على (ضياء) وإن كان صفة في المعنى دون اللفظ كما يدخل على الصفة التي هي صفة لفظاً...

وقال سيبويه: إذا قلت: (مررت بزيد وصاحبك) جاز، وإذا قلت: (مررت بزيد فصاحبك) بالفاء لم يجز» [1].

* * *

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

ذكر من صفات المتقين خشية ربهم بالغيب والإشفاق من الساعة.

والخشية «خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]» [2].

والإشفاق شدة الخوف [3].

لقد ذكر أنهم يخشون ربهم بالغيب، وقيل: إن قوله: (بالغيب) يعني أنهم يخافونه ولم يروه، وقيل: إنهم يخافونه من حيث لا يراهم أحد [4] وذلك عند مغيب الإنسان عن عيون البشر، أي في الخلوة [5].

---

(١) روح المعاني ١٧ / ٥٧.
(٢) مفردات الراغب (خشي).
(٣) البحر المحيط ٦ / ٣١٧.
(٤) البحر المحيط ٦ / ٣١٧.
(٥) البحر المحيط ٧ / ٣٢٥.

وقد ذكر هنا أنهم يخشون ربهم بالغيب ، فقيد الخشية بالغيب.

وأطلق الخشية في أكثر من موطن وذلك نحو قوله : ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الرعد: ٢١].

وقد فصلنا القول في التقييد والإطلاق في هذا التعبير في قوله تعالى في سورة يس : ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴿١١﴾﴾ [(١)] فلا نعيد القول فيه.

وقال : ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ بذكر الرب المضاف إلى ضميرهم ؛ لأن الرب هو المربي والهادي والمعلم ، وأن الفرقان والضياء إنما هما للهداية فناسب ذكر الرب.

وقال : ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ بالفعل المضارع الدال على التجدد ، فإن الفعل المضارع قد يدل على الاستمرار والتجدد نحو قوله سبحانه : ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ، وقوله : ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقوله ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦ ـ ٢٧] [(٢)].

ذلك أن خشية الله تتجدد في كل لحظة فجاء بها بالفعل المضارع الدال على الاستمرار.

وذكر اتصافهم بالإشفاق من الساعة بالصيغة الاسمية الدالة على الثبات ، ذلك أنها ساعة الحساب على الأعمال ، وهم يخافون على

---

(١) انظر كتابنا (على طريق التفسير البياني ـ ج ٢) تفسير سورة يس.

(٢) انظر (معاني النحو ـ ج ٣) ـ زمن الفعل المضارع.

الدوام مما عملوه: ما مضى منه ، وما هم فيه من العمل ، وما سيعملونه في المستقبل ، فجاء بها بالصيغة الاسمية الدالة على الدوام والثبات ؛ ذلك لأنها متعلقة بحياة الإنسان كلها الماضية والحالية والمستقبلية .

جاء في (البحر المحيط): «وتكون الصلة الأولى مشعرة بالتجدد دائمًا كأنها حالتهم فيما يتعلق بالدنيا .

والصلة الثانية من مبتدأ ومخبر عنه بالاسم المشعر بثبوت الوصف كأنها حالتهم فيما يتعلق بالآخرة» (١) .

وجاء في (تفسير أبي السعود): «وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه» (٢) .

وقدم الساعة على العامل في قوله: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ لأنه ذكر المتقين وهم الذين يحذرون ويتحفظون في أعمالهم لئلا يصيبهم منها سوء في الآخرة. وإنما ذلك يحصل في الساعة فقدمها.

ثم إن الكلام على الساعة تردد في السورة في أكثر من موضع :

فقد ابتدأت السورة باقتراب الحساب للناس وذلك قوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ .

وختمت بذلك وذلك قوله: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ . . .﴾ [الأنبياء: ٩٧ ـ ١٠٤] .

وتقدم الآية الكلام على الساعة وذلك قوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴿٤٧﴾﴾ .

فناسب ذلك تقديمها .

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣١٧ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٨ .

جاء في (تفسير أبي السعود) أن «تقديم الجار لمراعاة الفواصل وتخصيص إشفاقهم منها بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق للإيذان بكونها معظم المخوفات ، وللتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون» (١) .

* * *

﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

إن هذه الآية مناسبة لما ذكر قبلها من إيتاء موسى وهارون الفرقان ضياء وذكرًا للمتقين .

وأشار بقوله : ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ إلى القرآن ، أي هذا كتاب كثير البركة غزير النفع والخير .

والإشارة إلى الذكر هنا مناسبة لما ذكره من الذكر في الآية السابقة .

جاء في (تفسير أبي السعود) : «(ذكر) . . . وصف بالوصف الأخير للتوراة لمناسبة المقام وموافقة لما مر في صدر السورة الكريمة» (٢) .

ووصف الذكر بأنه مبارك وقدم الوصف بذلك على الإنزال .

قد تقول : لقد قال في سورة الأنعام : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿٩٢﴾ ﴾ .

فقال في الأنعام : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ ﴾ .

وقال ههنا : ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ ﴾ .

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٨.
(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٨.

وقدم الإنزال على وصفه بأنه مبارك في الأنعام فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾.

وقدم الوصف بالبركة على الإنزال في آية الأنبياء.

فلم ذاك؟

فنقول: إن كل تعبير مناسب للموطن الذي ورد فيه.

فقد قال قبل آية الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ (٩١)﴾.

فقد ذكر قول القائلين: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ﴾ فأنكروا الإنزال أصلاً.

ثم قال: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ﴾.

فقدم الإنزال على كونه مباركًا لأنه هو مدار الإنكار والاهتمام فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾. ولما كان الله قد أنزله فهو مبارك ولا شك.

ولما ذكر الكتاب في الآية فقال: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ناسب أن يقول في الآية بعدها: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾.

فناسب ذكر الكتاب في آية الأنعام سياقه، وناسب ذكر (الذكر) في الأنبياء سياقه. وناسب تقديم الإنزال على كونه مباركًا في آية الأنعام.

ولما لم يذكر الإنكار للإنزال في آية الأنبياء قدم عليه ذكر الوصف بالبركة.

ثم قال: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ للمشركين(١).

وقدم الجار والمجرور (له) على الخبر (منكرون) لأن الكلام عليه.

---

(١) انظر البحر المحيط ٦ / ٣١٧.

جاء في (البحر المحيط): «لما ذكر وقرر أن إنكار من أنكر أن يكون الله أنزل على البشر شيئًا وحاجّهم بما لا يقدرون على إنكاره أخبر أن هذا الكتاب الذي أنزل على الرسول مبارك كثير النفع والفائدة.

ولما كان الإنكار إنما وقع على الإنزال فقالوا: (ما أنزل الله) وقيل: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كان تقديم وصفه بالإنزال آكد من وصفه بكونه مباركًا، ولأن ما أنزل الله تعالى فهو مبارك قطعًا، فصارت الصفة بكونه مباركًا كأنها صفة مؤكدة إذ تضمنها ما قبلها.

فأما قوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ فلم يرد في معرض إنكار أن ينزل الله شيئًا بل جاء عقب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ذكر أن الذي آتاه الرسول هو ذكر مبارك.

ولما كان الإنزال يتجدد عبر بالوصف الذي هو فعل، ولما كان وصفه بالبركة وصفًا لا يفارق عبر بالاسم الدال على الثبوت»[1].

* * *

(١) البحر المحيط ٤ / ١٧٩.



قصة سيدنا إبراهيم

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ
مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ (٥٢) قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ
كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ (٥٥)
قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٦)
وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ
لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٩) قَالُوا۟
سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ (٦٠) قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ
كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟
إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ
يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا
يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ
وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩)
وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا
فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ (٧٢) ﴾

ورد هذا الجانب من قصة إبراهيم ـ أي محاجّة إبراهيم لأبيه وقومه ودعوته لهم ـ في سورة الأنعام ومريم والأنبياء والشعراء والعنكبوت والصافات والزخرف، غير أنها لم تتكرر، بل ورد في كل موضع

ما يناسب السياق وما يراد أن يسلّط عليه من الضوء.

ففي سورة الأنعام وهو أول موضع ورد فيه هذا الجانب كان الكلام مع أبيه متعجبًا مع الإنكار من أن يتخذ أصنامًا آلهة. قال تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾.

وهو أول موضع ذكر اسم أبيه (آزر) ولم يكرره في موضع آخر، فاكتفى بذكره في الموضع الأول.

كان الخطاب لأبيه وحده: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ ولم يقل: (أتتخذون) فكان الحديث مع الأب.

ثم قال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي هذا ما يراه هو، ولم يذكر أنه جاءه بذلك وحي أو علم. فهو لم يقل له: (إنك وقومك في ضلال مبين) بل قال إن هذا ما يراه.

ثم ذكرت القصة كيف اهتدى إلى ربه بالنظر في ملكوت السماوات والأرض، إذ رأى كوكبًا فقال: هذا ربي، حتى إذا أفل قال: لا أحب الآفلين.

ثم رأى القمر، فقال: هذا ربي، حتى إذا أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين.

ثم رأى الشمس فقال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت تبرأ من شرك قومه وخاطب قومه معلنًا براءته من شركهم وإيمانه بمن فطر السماوات والأرض.

وحاجّه قومه في ذلك فذكر لهم إيمانه بالله وأنه لا يخاف معبوداتهم التي يشركونها بالله (الآيات ٧٤ ـ ٨١).

وأما في سورة مريم فالقصة تبين أمرًا آخر، إذ سأل أباه أنه لم يعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئًا؟

ثم ذكر أنه قد جاءه من العلم ما لم يأته.

وهذه مرحلة غير الحالة الأولى.

فما ذكره في الأنعام أنه يراه وقومه في ضلال مبين ، أي هذا ما يراه.

أما في مريم فإنه ذكر لأبيه أنه قد جاءه من العلم ما لم يأته ، وأنه طلب منه أن يتبعه ليهديه الصراط السوي.

وهذا ما لم يذكره في الأنعام.

فكأن هذه مرحلة تتلو المرحلة الأولى قبلها.

ثم إن موقف أبيه منه قد تغير الآن ، فإن أباه هدده بالرجم إن لم ينته ، وأنه طلب منه أن يهجره. وقد أكد ذلك بالقسم: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾.

وكان موقف إبراهيم في غاية حسن الأدب وتمني الهداية لأبيه قائلاً له: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ﴿٤٧﴾ ﴾.

كما إن موقفه مع قومه قد اختلف.

ففي الأنعام ذكر المحاجّة مع قومه وانتهى الأمر عند ذاك.

أما في هذه السورة سورة مريم فقد ذكر أنه سيعتزلهم وما يدعون من دون الله. وقد اعتزلهم فعلاً ، فقد قال لقومه: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾.

ثم نفذ هذا الأمر فاعتزلهم. وقد أخبر ربنا بذلك فقال: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ ﴾.

فما ورد في سورة مريم كأنه استكمال لما ورد في الأنعام. وهو الحالة الطبيعية في مواقف الحياة.

وهذا ما ورد من القصة في سورة مريم:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا

يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾.

وأما ما ورد في سورة الأنبياء فالأمر مختلف.

فإن الموقف قد اختلف، فالمحاجّة قد اختلفت في الشدة، وإن العاقبة قد اختلفت.

فالخطاب كان للأب في سورتي الأنعام ومريم. وأما في هذه السورة فكان الخطاب عامًّا لأبيه وقومه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾.

ولم يذكروا أمرًا في الإجابة عن هذا السؤال سوى أنهم وجدوا آباءهم لها عابدين.

فقال لهم: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فأخبرهم أنهم كانوا هم وآباؤهم في ضلال مبين. ولم يقل كما قال في الأنعام: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي هذا ما يراه.

وإنما هو الآن قرر ذلك بعد ما جاءه العلم من ربه.

ثم إنه لم يذكر آباءهم في الأنعام بل ذكر أباه وقومه. أما الآن في سورة الأنبياء فإنهم بعد ما ذكروا أنهم وجدوا آباءهم لها عابدين قال لهم: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فقد ذكرهم وذكر آباءهم وقرر ذلك مؤكدًا بلام القسم (لقد).

ثم كان عاقبة ذلك أن حطم الأصنام فجعلها جذاذًا إلا كبيرًا لهم. وقرروا إحراقه فلم يفلحوا.

وأما في سورة الشعراء فذكر شيئًا آخر من قصة سيدنا إبراهيم مع أبيه وقومه، وهو المناقشة والحوار في أمر الأصنام وماذا تستطيع أن تفعله لهم.

وذكر هو ربه وما يفعله له.

فقد قال لأبيه وقومه سائلاً لهم: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾.

فأجابوه قائلين: نعبد أصنامًا فنظل لها عاكفين.

فسألهم قائلاً: هل يسمعونكم إذ تدعون، أو ينفعونكم أو يضرون؟

فلم يقولوا له: نعم هم كذلك، وإنما قالوا: ﴿ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾.

فأعلن عداوته لهذه الآلهة ولم يعلن عداوته لهم فقال: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

ثم ذكر ما يفعله له ربه رب العالمين: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾.

وانتهى الأمر عند هذا الحد ولم يتعد المحاجّة والمحاورة.

ثم انتهت القصة بالدعاء لنفسه ولأبيه قائلاً: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾.

فأنت ترى أنه نفذ ما وعد أباه في سورة مريم أنه سيستغفر له ربه حين قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ﴿٤٧﴾﴾ فقد دعا ربه هنا في الشعراء بالمغفرة لأبيه قائلاً: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ تنفيذًا لما وعد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

وأما ما ورد في العنكبوت فكأنه استكمال للحديث والمحاورة لما في الشعراء.

إذ بعد أن ذكر لهم ما يفعله ربه له من الخير في الشعراء دعاهم في العنكبوت إلى أن يعبدوا الله ويتقوه ليصيبهم من النعم ما هو خير لهم.

فإنه في الشعراء لم يدعهم إلى عبادة الله وإنما لم يتعد الأمر الحوار والحجاج، فلما تبين لهم ضعف حجتهم وأن آلهتهم لا تنفعهم شيئًا دعاهم إلى عبادة الله.

فذكر ما يفعله ربه له من النعم في الشعراء.

وذكر في العنكبوت أنهم إن هم عبدوه واتقوه أفاض عليهم بالخير والنعم.

قال تعالى:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ . . . فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا
مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ



بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ .

فما كانت نتيجة الحوار إلا أن قالوا : (اقتلوه أو حرقوه) فأنجاه الله من النار .

فكأن هذا نتيجة الحوار والحديث لما ورد في الشعراء والعنكبوت .

وأما ما ورد في سورة الصافات فإنه مختلف عن كل ما ورد ، فإنه لما ضاق ذرعًا بمحاجّتهم وأنهم لا يعبأون بحجة ولا يستمعون لقول ، وليس عندهم حجة سوى أنهم رأوا آباءهم كذلك مع إقرارهم بأنها لا تسمع أو تنفع أو تضر ، وأنه لم ينفع معهم ترغيب أو ترهيب أخذ يقرّعهم ويشتد عليهم في الكلام : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

فلم يقل : (ما تعبدون) كما قال في الشعراء ، وإنما قال لهم : (ماذا تعبدون) فزاد في لفظة الاستفهام لقصد تقريعهم . ذلك أن المقام في الشعراء مقام استفهام ومحاجّة ، وفي الصافات مقام تقريع ، يدل على ذلك قوله بعد هذه الآية : ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ .

ثم انتهى الأمر بتحطيم الأصنام وإلقائه في النار[(١)] .

ومع أنه ذكر في سورتي الأنبياء والصافات تحطيم الأصنام فإن القصة لم تتكرر فيهما ، فإنه ذكر في كل موضع ما لم يذكره في الآخر .

فإنه هدد في الأنبياء أنه ليكيدن أصنامهم (٥٧) .

وفي الصافات ذكر الحجة التي اعتلّ بها لئلا يخرج معهم في عيدهم فقال : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ [(٢)] ولم يذكر ذلك في الأنبياء .

وذكر في الصافات ما لم يذكره في الأنبياء من أنه راغ إلى آلهتهم

---

(١) انظر كتابنا (التعبير القرآني) ١٢٤ وما بعدها ، درة التنزيل ٣٣٦ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤ / ١٣ ، فتح القدير ٤ / ٣٨٩ .



فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾.

وذكر في الصافات أنهم قالوا: ﴿ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ ولم يذكر ذلك في الأنبياء.

ثم تسير القصة في الصافات مسارًا آخر غير مسارها في الأنبياء.

فإنه ذكر في الأنبياء أنه نجاه ولوطاً إلى الأرض التي بارك فيها، وذكر شيئًا من قصة لوط.

وأما في الصافات فقد ذكرت القصة الأمر بذبح ولده وما بعد ذلك.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ . . .﴾

وأما في الزخرف وهو آخر موضع وردت فيه هذه القصة فإنه لخص دعوته وخاتمة الأمر بإيجاز.

فقد أعلن لأبيه وقومه براءته مما يعبدون أشد البراءة قائلاً لهم: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾، واستثنى من ذلك مَن فَطَره فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾.

وأنه جعل هذه الكلمة باقية في عقبه، أي في ذريته «فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى ويدعو إلى توحيده عز وجل»[1].

---

(١) روح المعاني ٢٥ / ٧٧.

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعله يرجع من يشرك بالله إلى التوحيد.

قال تعالى في الزخرف: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ويمكن تلخيص قسم من أحداث القصة في السور التي ذكرناها بما يأتي:

الدعوة:

كان الحديث موجهًا إلى أبيه في الأنعام ومريم.

وفي الأنبياء والشعراء والصافات والزخرف موجهًا إلى أبيه وقومه.

وفي العنكبوت كان الكلام موجهًا لقومه؛ لأن الكلام كان لما هو خير لهم على العموم، ولأنه ذكر عاقبة الأمم المكذبة. فكان الكلام موجهًا لقومه على العموم.

موقف إبراهيم:

كان موقف إبراهيم في الأنعام لا يعدو المحاجّة.

وفي مريم كان اعتزاله لهم ولما يعبدون من دون الله.

وفي الأنبياء والصافات تحطيم الأصنام مع الاختلاف في التفاصيل.

وفي الشعراء التوسع في الاحتجاج.

وفي العنكبوت ذكر المنافع والترغيب في عبادة الله والترهيب من معصيته.

وفي الزخرف إعلان البراءة مما يعبدون إلا الذي فطره، وجعل كلمة التوحيد باقية في عقبه.

موقف قومه منه:

في سورة الأنعام ذكر محاجّة قومه له ولم يذكر كيف كان الاحتجاج وما كانت حجتهم ، والإلماح إلى أنهم خوّفوه آلهتهم فقال لهم إنه لا يخاف ما يشركون به .

وفي مريم ذكر تهديد أبيه له بالرجم .

وفي الأنبياء ذكر سؤال قومه له عمن حطم آلهتهم ، ومحاكمته أمام الناس والقضاء بتحريقه .

وفي الشعراء لم يتعدّ الموقف المحاجّة وانقطاعهم أمامه في الحجة .

وفي العنكبوت ذكر عاقبة المحاجّة وهي أنهم طلبوا قتله أو تحريقه .

وفي الصافات قرروا أن يبنوا له بنيانًا ويلقوه في الجحيم . ولم يذكر البنيان في الأنبياء وإنما ذكر الحكم بتحريقه .

فهناك ذكر الحكم ، وهنا ذكر كيفية تنفيذ الحكم .

عاقبة إبراهيم:

لم يذكر عاقبة إبراهيم في الأنعام سوى أنه ذكر أنه وهب له ذرية صالحة .

وفي مريم ذكر أنه لما اعتزل قومه وما يعبدون من دون الله وهب له إسحاق ويعقوب وجعل كلاً منهما نبيًّا .

وفي الأنبياء ذكر أن النار جعلها بردًا وسلامًا ، ونجاه ولوطاً إلى الأرض التي بارك فيها ووهب له إسحاق ويعقوب .

ولم يذكر في الشعراء سوى الدعاء لنفسه في الدنيا والآخرة .

وفي العنكبوت ذكر أن الله أنجاه من النار ، وذكر أنه مهاجر إلى ربه ، وأن الله وهب له إسحاق ويعقوب وآتاه أجره في الدنيا ، وفي الآخرة هو من الصالحين .

وفي الصافات ذكر أنهم أرادوا به كيدًا فجعلهم الأسفلين. وأنه بشره بغلام حليم، ثم بشره بإسحاق.

كيفية النجاة:

قال في الأنبياء: إنه قال للنار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم، ونجاه ولوطاً إلى الأرض التي بارك فيها.

وذكر في العنكبوت أنه أنجاه الله من النار ولم يقل كيف كان ذلك.

وفي الصافات قال: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ ولم يقل كيف كان ذلك.

ونعود الآن لدراسة القصة دراسة بيانية.

* * *

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾

«الرشد: الاهتداء لوجوه الصلاح»[١].

وإضافته إليه يعني كل ما يصح ويليق من الرشد أن يكون له. فاستوفى الرشد اللائق به. جاء في (تفسير أبي السعود): «﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ أي الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار، وهو الاهتداء الكامل المستند إلى الهداية الخاصة الحاصلة بالوحي»[٢].

قد تقول: ولم لم يقل (آتينا إبراهيم الرشد) أو (رشدًا)؟

فنقول: إن كلمة (الرشد) أعم من (رشده)، ولذا لم يستعمل القرآن

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٠.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٨ ـ ٧٠٩.

(الرشد) معرفة بأل للأشخاص ، وإنما استعملها لدينه أو سبيله أو نحو ذلك ؛ لأن الرشد أعم من (رشده) كما ذكرنا .

قال تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

وقال : ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا ﴾ [الأعراف : ١٤٦] .

وقال : ﴿ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ ﴾ [الجن : ١ ـ ٢] .

وأما (رشد) المنكرة فهي تعني أي نوع من الرشد وإن كان قليلاً ، وذلك نحو قوله سبحانه : ﴿ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ ﴾ [النساء : ٦] .

وهذا شأن عموم العقلاء من خلق الله من المكلفين .

فليس في ذلك مزية خاصة به .

بخلاف قوله : ﴿ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ ﴾ أي رشده الذي يليق به ، فاستوفى جميع الرشد الذي يمكن أن يكون له .

﴿ مِن قَبۡلُ ﴾

أي من قبل موسى وهارون المذكورين في الآية السابقة .

﴿ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ «كقوله : ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾ وهذا من أعظم المدح وأبلغه» (١) .

وتقديم الجار والمجرور (به) على (عالمين) لأن الكلام على سيدنا إبراهيم .

* * *

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٢٠ .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قيل: إن (إذ) إما أن يتعلق بـ (آتينا) أي آتينا إبراهيم حين قال لأبيه وقومه رشده.

وقيل: هو متعلق بـ (رشده) أي آتيناه رشده حين قال لأبيه وقومه.

ويحتمل أن يكون متعلقًا بـ (عالمين) أي كنا به عالمين حين قال لأبيه وقومه.

وقيل: أو هو متعلق بمحذوف، أي اذكر من أوقات رشده حين قال لأبيه وقومه[1].

والذي يبدو لي أن الوجه الأخير هو أولى، ذلك أن أي تقدير آخر يعني أنما يكون الرشد في ذلك الوقت.

فقولنا: (آتيناه الرشد حين قال لأبيه) يعني أنه آتاه الرشد في ذلك الوقت خصوصًا.

وتعليقه بـ (رشده) يعني أن رشده إنما هو حين قال لأبيه وقومه.

وتعليقه بـ (عالمين) أي أن علمنا إنما كان حين قال لأبيه وقومه.

فكل تعليق بمذكور إنما يتخصص الرشد بذلك الأمر. في حين أن إيتاء الرشد كان عامًّا، وهذا القول من مظاهر رشده.

وتقديره بـ (اذكر) لا يعني تخصيصًا بوقت دون وقت، وإنما أراد أن يذكر من حالات رشده ما ذكره لأبيه وقومه.

وبدأ بذكر الأب لأنه الأولى والأهم عنده في إنقاذه مما هو فيه.

جاء في (البحر المحيط): «وبدأ أولاً بذكر أبيه لأنه الأهم عنده في

---

(١) انظر الكشاف ٢ / ٣٣٠، البحر المحيط ٦ / ٣٢٠.

النصيحة وإنقاذه من الضلال ، ثم عطف عليه (قومه) كقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾» (١).

﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾

وسؤاله لهم إنما هو من تجاهل العارف إذ هو عالم بذلك ، فهو يعلم لماذا هم عاكفون لها.

جاء في (الكشاف): «قوله: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ تجاهل لهم وتغاب ليحقر آلهتهم ويصغر شأنها مع علمه بتعظيمهم وإجلالهم لها» (٢).

وجاء في (التحرير والتنوير): «وهذا من تجاهل العارف استعمله تمهيدًا لتخطئتهم بعد أن يسمع جوابهم» (٣).

والتماثيل هي الصور التي تماثل غيرها من المخلوقات و«التمثال اسم للشيء المصنوع مشبَّهًا بخلق من خلق الله» (٤).

ومعنى (عاكفون لها): ملازمون لها «والعكوف الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له ، وقيل: اللزوم والاستمرار على الشيء لغرض من الأغراض» (٥).

«والظاهر أن اللام في (لها) لام التعليل أي لتعظيمها ، وصلة (عاكفون) محذوفة ، أي على عبادتها.

وقيل: ضمن (عاكفون) معنى عابدين فعداه باللام» (٦).

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٢٠.
(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٠.
(٣) التحرير والتنوير ١٧ / ٩٤.
(٤) لسان العرب (مثل).
(٥) روح المعاني ١٧ / ٥٩.
(٦) البحر المحيط ٦ / ٣٢٠.

وجاء باسم الفاعل (عاكفون) للدلالة على الدوام، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨] بالفعل، ذلك أنهم مروا بهم في طريقهم بعد مجاوزتهم البحر فوجدوهم كذلك ولم يكونوا معهم على الدوام ليروا ملازمتهم لها.

* * *

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

فأجابوه بأنهم مقلدون لآبائهم.

ولما سألهم عن العكوف بصيغة اسم الفاعل (عاكفون) أجابوه بالعبادة باسم الفاعل (عابدين).

ولما كان السؤال عن التماثيل قدم الجار المتصل بضميرها (لها عاكفون) ولم يقل: (عاكفون لها). هذا علاوة على أن عبادتهم مقصورة عليها.

فتقديم (لها) على (عابدين) مناسب من ناحيتين:

الأولى: أن السؤال كان على التماثيل فقدم ضميرها.

ثم ان العبادة مختصة بها فقدم ضميرها أيضًا.

* * *

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

فقال لهم مؤكدًا: إنهم وآباءهم ساقطون في الضلال الظاهر البين منغمسون فيه.

وقال: (في ضلال) بـ(في) الظرفية ولم يقل: (ضالين) للدلالة على انغماسهم في الضلال فلا يتبينون الحق وأن الضلال «قد أحاط

بكم إحاطة الظرف بالمظروف»[١].

جاء في (روح المعاني): «وفي اختيار (في ضلال) على (ضالين) ما لا يخفى من المبالغة في ضلالهم.

وفي الآية دليل على أن الباطل لا يصير حقًّا بكثرة المتمسكين به»[٢].

وقال: (مبين) للدلالة على أن هذا الضلال ظاهر غير خفي.

جاء في (تفسير أبي السعود): «(مبين) أي ظاهر بيّن بحيث لا يخفىٰ على أحد من العقلاء كونه كذلك»[٣].

* * *

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥﴾

حسبوا أن ما قاله لهم إنما هو من باب المزاح، فقالوا له: أأنت جادّ أم مازح؟

«وفي إيراد الشق الأخير بالجملة الاسمية الدالة على الثبات إيذان برجحانه عندهم»[٤].

* * *

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦﴾

ذكر أمرين لمن يستحق العبادة ولا يستحقها غيره.

الأمر الأول: أنه رب السماوات والأرض.

---

(١) نظم الدرر ١٢ / ٤٣٦.

(٢) روح المعاني ١٧ / ٥٩.

(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٩.

(٤) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٠ وانظر البحر المحيط ٦ / ٣٢١.

الأمر الآخر: أنه هو الذي فطرهن وأوجدهن من العدم.

وذلك هو الله ولا رب غيره ولا يستحق أن يعبد سواه.

جاء في (تفسير أبي السعود): «وصفه تعالى بإيجادهن إثر وصفه تعالى بربوبيته تعالى لهن تحقيقًا للحق وتنبيهًا على أن ما لا يكون كذلك بمعزل من الربوبية. أي أنشأهن بما فيهن من المخلوقات التي من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدونه»(١).

وجاء في (البحر المحيط): «ثم أضرب عن قولهم وأخبر عن الجدّ وأن المالك لهم والمستحق العبادة هو ربهم ورب هذا العالم العلوي والعالم السفلي المندرج فيه أنتم ومعبوداتكم»(٢).

وهذان الأمران من الاستدلال احتج بهما القرآن على من يعبد غير الله من الكفار، فإنهم يقرون بذلك ولا ينكرونه ومع ذلك يعبدون غيره. فقد أمر سبحانه رسوله أن يسأل الكفار المعاندين قائلاً له: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦ ـ ٨٧].

وقال: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٥].

فهو الرب وهو المالك للأرض ومن فيها.

بل هو مالك كل شيء كما يقرّون ويعترفون. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨ ـ ٨٩].

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٠.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٥.

ثم ذكر أنك لو سألتهم من خلق السماوات والأرض لقالوا: هو الله.

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦١] .

فهم يقرون بأنه رب السماوات والأرض وأنه هو الذي خلقهن، ومع ذلك فهم يعبدون غيره.

﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

وشهادته على ذلك إنما هي بإقامة الحجة عليهم.

جاء في (الكشاف): «وشهادته على ذلك إدلاؤه بالحجة عليه، وتصحيحه بها، كما تصحح الدعوى بالشهادة، كأنه قال: وأنا أبين ذلك وأبرهن عليه كما تبين الدعاوى بالبينات، لأني لست مثلكم فأقول ما لا أقدر على إثباته بالحجة، كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم، ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم»(١).

وجاء في (التفسير الكبير) للرازي في قوله: ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ أن في ذلك وجهين:

«الأول: أن المقصود منه المبالغة في التأكيد والتحقيق، كقول الرجل إذا بالغ في مدح أحد أو ذمه: أشهد أنه كريم.

والثاني: أنه عليه السلام عنى بقوله: ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ ادعاء أنه قادر على إثبات ما ذكره بالحجة، وأني لست مثلكم فأقول ما لا أقدر على إثباته بالحجة، كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم»(٢).

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣١.

(٢) التفسير الكبير ٨ / ١٥٣.

إن إبراهيم عليه السلام بيّن أمرين في الاحتجاج :

أمرًا قوليًّا ، وهو الاحتجاج بربوبية السماء والأرض ومن فطرهن.

وأمرًا فعليًّا وهو تحطيمه للأصنام التي يعبدونها ليدل على أنها غير قادرة على الدفع ، فهي لا تستطيع أن تدفع الضرر عن نفسها ، وبالأولى أنها لا تستطيع أن تدفع عن الغير. وعلى أية حال فهي لا تضر ولا تنفع.

فهي لا تستحق أن تعبد.

جاء في (التفسير الكبير) للرازي: «اعلم أن القوم لما أوهموا أنه يمازح بما خاطبهم به في أصنامهم أظهر عليه السلام بما يعلمون أنه مجد في إظهار الحق الذي هو التوحيد بالقول أولاً وبالفعل ثانيًا.

أما الطريقة القولية فهي قوله: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ وهذه الدلالة تدل على أن الخالق الذي خلقهما لمنافع العباد هو الذي يحسن أن يعبد. . .

وأما الطريقة الفعلية فهي قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ فإن القوم لما لم ينتفعوا بالدلالة العقلية عدل إلى أن أراهم عدم الفائدة في عبادتها»[١].

* * *

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

جاء بالتاء في القسم بالله ليدل على عظيم ما سيأتي به ، فإن التاء تدل على التعظيم والتفخيم ، فإنه أقسم على أمر عظيم سيفعله وذلك لتعظيم

---

(١) التفسير الكبير ٨ / ١٥٣.

قومه لهذه الأصنام والعكوف عليها غير مبال بالعاقبة. جاء في (الكشاف): «التاء بدل من الواو المبدلة منها، وإن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب، كأنه تعجب من تسهل الكيد على يده وتأتيه؛ لأن ذلك كان أمراً مقنوطاً منه لصعوبته وتعذره» [١].

﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾

الكيد: «هو الاحتيال في وصول الضرر إلى المكيد» [٢].

فقال: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ مع علمه أن الأصنام لا تحتاج إلى الكيد، فإنها لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر ولا تدفع ولا تنفع، وذلك ليبين لقومه أنها لا تعي ولا تدرك ما يراد من إيقاع الضرر بها، ولو كانت تعلم أو تقدر لمنعت هذا الكيد، فلعل ذلك يصرفهم عن عبادتها.

أو إن المعنى أراد أن يحتال على قومه ليوقع بأصنامهم، وكان ذلك في اختيار يوم عيدهم وفيما ادعاه من سقمه إذ قال: (إني سقيم).

جاء في (التفسير الكبير) للرازي: «إن قيل: لماذا قال: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ والكيد هو الاحتيال على الغير في ضرر لا يشعر به وذلك لا يتأتى في الأصنام.

وجوابه: قال ذلك توسعًا لما كان عندهم أن الضرر يجوز عليها.

وقيل: المراد لأكيدنكم في أصنامكم؛ لأنه بذلك الفعل قد أنزل بهم الغم» [٣].

وقال: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ فسماها أصنامًا وقد قال في آية سابقة: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ فسماها (تماثيل)، ذلك أنه سماها

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣١.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٢٢.

(٣) التفسير الكبير ٨ / ١٥٣.

تماثيل لتجاهل العارف ـ كما ذكرنا ـ كأنه لا يعرف ما حقيقتها ولماذا هم عاكفون عليها. والتمثال ليس بالضرورة للعبادة.

أما بعد أن ذكروا أنهم عابدون لها فقد سماها أصنامًا؛ لأن الصنم «هو ما اتخذ إلهًا من دون الله»(١).

فلما ذكروا عبادتهم لها سماها أصنامًا. ولذا لم يرد في القرآن لفظ الأصنام إلا في مقام العبادة أو اتخاذها آلهة.

قال تعالى: ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

فرد عليهم موسى بقوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ [الأعراف: ١٤٠].

وقال على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقال: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ﴾ [الأنعام: ٧٤].

وقال: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١].

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾

أي قطعا من الجذّ وهو القطع(٢)، وقيل: حطامًا(٣).

وقال: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ بضمير العقلاء، ولم يقل: (فجعلها) لأنها كانت تعبد(٤)، فنزلها منزلة العقلاء.

﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ لم يكسره لعلهم يرجعون إليه فيسألونه، وهو من الكيد الذي دبره سيدنا إبراهيم.

---

(١) لسان العرب (صنم).
(٢) التفسير الكبير للرازي ٨ / ١٥٤.
(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٢٢.
(٤) البحر المحيط ٦ / ٣٢٢.



﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾

قيل: إن الضمير في (إليه) يعود على إبراهيم، أي يرجعون إلى إبراهيم فيسألونه لما تسامعوه من إنكاره لدينهم وسبه لآلهتهم.

وقيل: إن الضمير يعود على الصنم الكبير فيسألونه عن ذلك[١].

وهو الأصوب في رأيي، لأنه حتى لو حطم الكبير فسيرجعون إلى إبراهيم لما تسامعوه عنه من ذكره لآلهتهم.

وعلى هذا لا موجب لبقاء الكبير، فإنهم على أية حال سيرجعون إلى إبراهيم، وإنما استبقى الكبير ليتم إقامة الحجة عليهم بسؤاله وعلمهم بعجزه عن الإجابة.

وقدم الجار والمجرور (إليه) على الفعل (يرجعون) للحصر[٢].

* * *

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾

استفهموا على سبيل البحث والإنكار والتوبيخ فقالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا﴾ وذلك بعد أن رجعوا من عيدهم وشاهدوا ما شاهدوا من التكسير والتحطيم[٣].

وقالوا: (بآلهتنا) «ولم يشيروا إليها بـ (هؤلاء) وهي بين أيديهم مبالغة في التشنيع»[٤].

---

(١) انظر الكشاف ٢ / ٣٣١.
(٢) روح المعاني ١٧ / ٦٢.
(٣) انظر البحر المحيط ٦ / ٣٢٣، تفسير أبي السعود ٣ / ٧١١.
(٤) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١١.



وقيل: يحتمل أن تكون (من) اسمًا موصولاً، وجملة ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خبرًا عنه «والمعنى: الذي فعل هذا الكسر والحطم بآلهتنا إنه معدود من جملة الظلمة»[١].

والاستفهام أظهر، يدل على ذلك قوله بعد الآية: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

فإن كون هذا جوابًا عن سؤالهم أظهر.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الاستفهام أدل على الإنكار والتوبيخ من الإخبار.

وقالوا: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأكدوا كلامهم بإن واللام ولم يقولوا: (إنه من الظالمين) للدلالة على كبير ظلمه وشناعة فعله.

* * *

﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

قالوا: (يذكرهم) بضمير العقلاء، ولم يقولوا: (يذكرها) وذلك لأنهم يظنون أنها ذوات عاقلة.

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾

﴿عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي في مكان مرتفع على مرأى من الناس يشهده الجميع[٢].

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾: أي لعلهم يشهدون عليه بما يسمعون منه وبما

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١١.

(٢) انظر الكشاف ٢ / ٣٣٢، تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٢.

فعله. أو يشهدون العقوبة التي سننزلها به[١] «فيكون ذلك زاجرًا لهم عن الإقدام على مثل فعله»[٢].

وقيل: إن «المراد مجموع الوجهين فيشهدون عليه بفعله ويشهدون عقابه»[٣].

وهو الظاهر، وحذف مفعول (يشهدون) ليجمع أكثر من وجه، والله أعلم.

* * *

﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

أي فأتوا به فسألوه، فحذف ما هو معلوم وليس في ذكره فائدة وإنما ذكر ما هو أهم.

قالوا: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا ﴾ ولم يقولوا: (أفعلت هذا) لأن السؤال عمن فعل الفعل، وليس السؤال عن الفعل أوقع أم لم يقع، كيف وقد أشير إلى الفعل بقوله: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا ﴾.

تقول: (أأنت ضربت زيدًا؟) إذا كان الضرب حاصلاً فتسأل عمن أوقعه فتقول: أأنت فعلت؟

وتقول: (أضربت زيدًا؟) إذا كان السؤال عن الفعل أحصل أم لم يحصل.

جاء في (البحر المحيط): «﴿ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ ﴾: إذا تقدم الاسم في نحو

---

(١) انظر الكشاف ٢ / ٣٣٢.

(٢) التفسير الكبير ٨ / ١٥٥.

(٣) التفسير الكبير ٨ / ١٥٥.

هذا التركيب على الفعل كان الفعل صادرًا واستفهم عن فاعله وهو المشكوك فيه.

وإذا تقدم الفعل كان الفعل مشكوكًا فيه فاستفهم عنه أَوَقع أو لم يقع» [١].

وقالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا﴾ ولم يقولوا: (بالأصنام) أو (بأصنامنا) فسموها آلهة تعظيمًا لها، بل هي آلهتهم.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

القصد من هذا الإضراب أن يلزمهم الحجة لعلهم يعودون إلى عقولهم أو تعود إليهم فيعلمون أن آلهتهم لا تدفع ولا تنطق ولا تنصر نفسها.

جاء في (الكشاف): «هذا من معاريض الكلام... والقول فيه أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم» [٢].

«وإنما لم يقل عليه السلام: إن كانوا يسمعون أو يعقلون مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضًا لما أن نتيجة السؤال هو الجواب وأن عدم نطقهم أظهر وتبكيتهم بذلك أدخل» [٣].

* * *

﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

أي رجعوا إلى عقولهم فأدركوا أنه ينبغي أن تسأل الآلهة عن ذلك لا

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٢٤.
(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٢.
(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٣.

إبراهيم فإن إلقاء التهمة عليه ظلم.

جاء في (البحر المحيط): «﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي إلى عقولهم حين ظهر لهم ما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام من أن الأصنام التي أهلوها للعبادة ينبغي أن تسأل وتستفسر قبل.

ويحتمل أن يكون (فرجعوا) أي رجع بعضهم إلى بعض فقالوا: (إنكم أنتم الظالمون) في سؤالكم إبراهيم حين سألتموه ولم تسألوها... أو حين عبدتم ما لا ينطق» (١).

وقيل: «أي راجعوا عقولهم وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الإضرار بمن كسره بوجه من الوجوه يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره أو جلب منفعة له فكيف يستحق أن يكون معبودًا» (٢).

ثم إنهم لما نسبوا الظلم إلى من فعل بآلهتهم فقالوا: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عادوا فنسبوا الظلم إلى أنفسهم فقالوا: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وكما أكدوا قولهم بإن واللام فقالوا: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أكدوه أيضًا عندما نسبوه إلى أنفسهم بإن والضمير المنفصل.

ثم إنهم لم يقولوا: (إنكم أنتم ظلمون) بل قالوا: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فعرفوا الظالمين بأل، أي إنكم أنتم الظالمون وليس غيركم، فعرفوه للدلالة على الحصر.

جاء في (التحرير والتنوير) في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: «الجملة مفيدة للحصر، أي أنتم ظالمون لا إبراهيم لأنكم ألصقتم به

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٢٥.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٣.

رَاشِـدُ بْنُ شِهَابٍ اليَشْكُرِيُّ

مُضَاضُ بْنُ عَمْرٍو

ضَمْرَةُ بْنُ ضَمْرَةَ النَّهْشَلِيُّ

بَكَرَتْ تَلُومُكَ ... في النَّدَى !

١ بَكَرَتْ تَلُومُكَ بَعْدَ وَهْنٍ ، في النَّدَى   بَسْلٌ عَلَيْكِ مَلاَمَتِي وَعِتَابِي
٢ أَأَصُرُّهَا ، وَبُنَيُّ عَمِّي سَاغِبٌ؟   فَكَفَاكِ مِنْ إِبَةٍ عَلَيَّ وَعَابِ
٣ وَلَقَدْ عَلِمْتُ ، فَلاَ تَظُنِّي غَيْرَهُ ،   أَنْ سَوْفَ يَظْلِمُنِي سَبِيلُ صِحَابِي
٤ أَرَأَيْتِ إِنْ صَرَخَتْ بِلَيْلٍ هَامَتِي   وَخَرَجْتُ مِنْهَا عَارِياً أَثْوَابِي
٥ هَلْ تَخْمِشَنْ إِبِلِي عَلَيَّ وُجُوهَهَا   أَوْ تَعْصِبَنَّ رُؤُوسَهَا بِسِلاَبِ؟

---

* نسبت هذه الأبيات في « الوحشيات » إلى « حَرِّيٍّ » بن ضمرة ، وإجماع الروايات على أنها لضمرة نفسه .

١ بكرت : عجلت . الوهن : الضعف في الأمر والعمل والبدن . والوهن : نوْمة . بسل : حرام .

* أسرعت منذ الصباح تلومك في الكرم . إن من الحرام عليكِ أن تمعني في عتابي ولومي .

٢ أ أصرها ؟ .. أي نوقه يربط ضروعها لئلا يرضعها أولادها بخلاً عليها بذلك ، أو يقصد أمواله يشد عليها في صرة ويخفيها فلا يجود بشيء منها على الناس . ساغب : جائع . الإبة : الحياء والخزي والعار . عاب : عيب .

* هل تريدين أن أصر على أموالي وادخرها وأخفيها ، بينما أولاد عمي جائعون ؟ .. يكفي ما تدعوني إليه من بخل يجر عليَّ العار والخزي والعيب !

٣ يظلمني : ينقصني ، يعجلني عن أواني .

* أنا عارف أن الطريق التي سلكها أصحابي سأسلكها عاجلاً .

وفي رواية (تخلجني) : تجذبني وتنتزعني .

٤ ، ٥ هامتي : روحي ، بحسب مزاعم الجاهلية أن روح القتيل الذي لم يدرك بثأره تصير هامة فتصرخ كل ليلة عند قبره : اسقوني ، اسقوني ، فإذا أدرك بثأره طارت . أثوابي : أكفاني . (وفي رواية بالياً أثوابي) .

* فهل تظنين ـ إذا صرخت هامتي ليلاً وخرجت عارياً من أكفاني البالية ـ أن إبلي ـ التي تدعوني إلى البخل بها ـ تخمش وجوهها حزناً عليَّ ـ لأني وفَّرتها من الذبح ـ أو تعصبن رؤوسها حِداداً عليَّ ؟!..

ثَوْبُ بْنُ النَّارِ اليَشْكُرِيُّ